جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف

في رحـــاب
السيرة النبوية المشرفة

إعـداد
د/ أسامة فخري الجندي

تقـــديـم
أ.د/ محمد مختار جمعة
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية

١٤٤٥هـ / ٢٠٢٣م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾

(الأحزاب : ٢١)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــــــديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين .

وبعـد:

فإن السيرة النبوية المشرفة هي التطبيق العملي لجوانب كثيرة من سنة نبينا (صلى الله عليه وسلم)، وهي نبراس مبين لنا إلى يوم الدين ، غير أن أكثر الجماعات المتطرفة في عصرنا الحاضر قد ركزت في قراءة السيرة النبوية وكتابتها وتدريسها على موضوع الغزوات كجانب تكاد تجعله وحيدًا أو الأبرز – على الأقل – في السيرة النبوية ، لأنها كانت تجيد استخدام هذا الجانب في تهييج مشاعر وإلهاب حماس عناصرها وكوادرها ، بل تتخذ من ذلك وسيلة لإثارة العامة أحيانًا كثيرة .

ولقد سمى القرآن الكريم الأسماء بمسمياتها الأدق ، فلم يرد في القرآن الكريم لفظ غزوة قط ، إنما عبر بلفظ يوم عما كان من نصر المسلمين يوم بدر الذي سماه الحق سبحانه وتعالى يوم الفرقان ، فقال سبحانه : " وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "(الأنفال: ٢٨).

وهكذا أيضا تحدث القرآن الكريم عن يوم حنين ، حيث يقول الحق سبحانه: " لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"(التوبة: ٢٥-٢٧)، فقد كانت حروب النبي (صلى الله عليه وسلم) دفاعية،

إما دفعا لعدوان ، أو ردا لاعتداء ، أو دفعا لخيانة أو تآمر ، أو لنقض الأعداء عهدهم معه (صلى الله عليه وسلم)، ولَم يكن أي منها اعتداء على أحد ، فكان الأنسب والأدق التعبير عنها بلفظ يوم وليس بلفظ غزوة ، وهو ما نعتمده ونراه الأدق في التعبير ، وضعًا للأمور في نصابها وتسميتها بمسمياتها التي سماها القرآن الكريم بها وآثرها على غيرها، وهو ما عبر عنه بعض الكتاب والمؤرخين المدققين في مؤلفاتهم تحت عنوان:" أيام العرب في الجاهلية والإسلام".

غير أن الحرب قد تكون ضرورة للدفاع عن النفس والعرض ، والمال ، والديار والأوطان ، وكيان الدول ووجودها ، وحمايتها من الأخطار التي تتهددها.

وحتى في الحرب التي هي ردّ للاعتداء نهى الإسلام نهيًا صريحًا عن تخريب العامر ، وهدم البنيان ، وكان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين يجهزون جيوشهم يوصون قادتها ألا يقطعوا شجرًا، وألا يحرقوا زرعًا ، أو يخربوا عامرًا، أو يهدموا بنيانًا، إلا إذا تحصن العدو به واضطرهم

إلى ذلك ولم يجدوا عنه بديلا ، وألا يتعرضوا للزرّاع في مزارعهم ، ولا الرهبان في صوامعهم ، وألا يقتلوا امرأة ، ولا طفلا ، ولا شيخًا فانيًا ما داموا لم يشتركوا في القتال ، فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يوصي قادة جيشه بقوله : (انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللهِ وَبالله وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللهِ ، وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا ، وَلَا طِفْلًا ، وَلَا صَغِيرًا ، وَلَا امْرَأَةً ، وَلَا تَغُلّوا) (سنن أبي داود) ، وفي رواية : (وَلَا تَغُلّوا، وَلَا تَغْدِرُوا ، وَلَا تَمْثُلُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا) (صحيح مسلم).

وفي وصية أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) لأحد قادة جنده : "وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ : لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً ، وَلَا صَبِيًّا ، وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا ، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا ، وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا ، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً ، وَلَا بَعِيرًا ، إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَحْلًا ، وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ ، وَلَا تَغْلُلْ ، وَلَا تَجْبُنْ" (السنن الكبرى للبيهقي).

وقد شدد النبي (صلى الله عليه وسلم) في النهي عن قتل الأطفال أو الذرية تشديدًا كبيرًا ، وبلغه (صلى الله عليه وسلم) قتل بعض الأطفال فوقف يصيح في جنده : (مَا بَالُ

أَقْوَامٍ جَاوَزَ بِهِمُ الْقَتْلُ إِلَى الذُّرِّيَّةِ ، أَلاَ لاَ تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً ، أَلاَ لاَ تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً) (السنن الكبرى للبيهقي).

وقد نهى النبي (صلى الله عليه وسلم) عن قتل جميع من لا يقاتل وخاصة النساء ، فلما رأى امرأة مقتولة ، وكان من حالها أنها لا تقوى على القتال استنكر (صلى الله عليه وسلم) ذلك بشدة ، وقال: (مَنْ قَتَلَ هَذِهِ؟ مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ) (سنن أبي داود)، مما يؤكد أنه لا قتل على المعتقد قط، وأن القتل ليس مقابلًا للكفر ، إنما هو مقابل لدفع القتل ورد الاعتداء ، حيث يقول الحق سبحانه: { وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (الحج : ٤٠).

فالقتال في الإسلام مقصور على رد الاعتداء دون تجاوز، حيث يقول الحق سبحانه : {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}(البقرة: ١٩٠)، ويقول سبحانه : {فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ

بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا الله وَاعْلَمُوا أَنَّ الله مَعَ الْمُتَّقِينَ }(البقرة: ١٩٤).

أما إذا فُرض علينا القتال فإننا لا يمكن أن نعطي الدنية في ديننا ولا أن نتخاذل عن الدفاع عن أوطاننا، إنما نفتديها بأنفسنا وشعارنا في ذلك : والله إنها لإحدى الحسنين إما النصر وإما الشهادة ، حيث يقول الحق سبحانه مخاطبًا المسلمين في يوم بدر : {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ}(الأنفال: ٧)، أي: ويقطع دابر الكافرين المعتدين عليكم المتربصين بكم الذين أخرجوكم من دياركم وأموالكم، لا ذنب لكم ولا جريرة إلا أنكم آمنتم بالله ورسوله ، ويقول سبحانه : {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}(النساء: ١٠٤)، ويقول سبحانه:{ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ

مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}(آل عمران: ١٤٠)، ويقول سبحانه:{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ* إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ* وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} (آل عمران: ١٢٣– ١٢٦) ، ويقول سبحانه: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(الأنفال: ٦١– ٦٣) .

وقد قلت حول هذه المعاني التي تؤكد أننا أهل سلام ما لم تفرض علينا الحرب ، فإن فرضت علينا فنحن رجالها :

من رامهـا سلمـــــا فتلك يـــد

أو رامها حربًا فنحـن رجالهـــــا

لا نعتدي أبدًا ولا نرضى الخنـــا

إن الرجـولة عنـدنا عنوانهـــــا

إحـدى اثنتين ولا معقّب بعـــده

النصرُ نصرٌ أو نُـرى شهـــــداءها

ونؤكد أن إعلان حالة الحرب والسلم المعبر عنها في العصر الحديث بحالة التعبئة وعند الفقهاء بالجهاد القتالي، ليست أمرًا متروكًا لعامة الناس ، وإنما هي سلطة الحاكم في ضوء ما يقرر قانون كل دولة ودستورها ، وأنه ليس لأحد أن يخرج للقتال من تلقاء نفسه في غير ما ينظمه القانون والدستور ، وإلا لصار الناس إلى أبواب من الفوضى لا تسد.

ويحاول الكاتب الدكتور/ أسامة فخري الجندي أن يقدم في هذا الكتاب رؤية أشمل وقراءة جديدة للسيرة النبوية

المشرفة ، نسأل الله العلي العظيم أن يتقبل هذا العمل ، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل،،،

أ.د/ محمد مختار جمعة
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف

تمهيـــــد

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

أما بعد :

فإننـا في حاجـة ملحـة إلى الفهـم العميـق والقـراءة الدقيقـة لسـيرة الـنبي ﷺ، واسـتخراج كنوزهـا وأسـرارها، وأحكامهـا وتعاليمهـا، والـتي لا تتوقـف بحـدود الزمـان أو المكان؛ إذ إن سيرةَ النبي ﷺ هي مَعينٌ لا ينضب أبدًا، ففيها الترجمة الواقعية والتطبيق العملي للتعاليم القرآنية، وفيها ارتبـاط عـالم الشـهادة بعـالم الغيـب، وفيهـا صـناعة الحيـاة وصياغتها من خلال مُعايشة مادية الأرض لقِيَم السماء، بما يحقـق قـوانين عامـة لصـيانة الإنسـان في الـدنيا والآخـرة، فيصنع الإنسان جمالًا في الدنيا، وينتظره جمالٌ في الآخرة .

إن مما يعين على قراءة سيرة النبي ﷺ قراءة دقيقة وفاحصة أنها تأريخ دقيق لحياة نبي مرسل؛ ذلك لأن كلَّ شيء عن حياة النبي ﷺ كتب وفق منهج رصين يتسم بدقة عالية وبتوثيق فائق؛ مما جعله صفة أساسية ورئيسة في كل ما

يتناول السيرة النبوية من خلال الكتّاب المدققين، وهذه مزية خص الله تعالى بها السيرة النبوية؛ وذلك من تمام حكمته، ذلك أن سيرة صاحب الرسالة الخاتمة يجب أن تكون محفوظةً مصونةً حتى تتعاقب عليها جميع أجيال البشرية إلى قيام الساعة، ومن تمام حفظ السيرة النبوية فهم مقاصدها وإدراك جملة وقائعها وأحداثها، بما يحقق فهمًا مستنيرًا لها .

ولا شك أن مما يزيدني شرفًا أن أكتب عن سيرة النبي ﷺ، متلمسًا فيها أسرارًا وأحكامًا وفقهًا يبرز هَدْي السيرة النبوية وحكمة تصرفاتها ، تلكم السيرة التي كانت وما زالت وستظل أعلى مرتقى للإنسانية في صياغة وصيانة الإنسان وصناعة الجمال في الكون .

وقد لاحظت أن من يكتب في السيرة النبوية المشرفة إما أن يركز على الأحداث التاريخية بذكر تصرفات النبوة إزاءها، وإما أن يركز على جانب الشمائل المحمدية، وسأحاول – إن شاء الله تعالى – أن أجمع بين الأمرين،

بالإضافة إلى فقه تصرفات النبوة؛ فنأخذ من كنوز وأسرار وفقه السيرة النبوية ما نستطيع أن نسقطه على واقعنا، وبما يتناسب مع الزمان والمكان والبيئة .

وسوف يكون منهجي في هذا البحث – إن شاء الله تعالى – أن أبتعد عن طريقة السرد المطلق، وكذلك عن مجرد جمع الروايات الكثيرة المتعلقة بأحداث ووقائع السيرة المشرفة، بل قمت بتبسيط الأحداث والوقائع ما أمكن، لتكون في متناول الجميع، مع إحالة القارئ الكريم إلى مواطن ومواضع تلك الأحداث في مظانها.

والله أرجو أن ينفع به، ويكون حلقة من حلقات استنباط المعاني والكنوز التي امتلأت بها سيرة النبي ﷺ.

□د/ أسامة فخري الجندي
□مدير عام شئون القرآن الكريم
بوزارة الأوقاف

الباب الأول

العهد المكي
(من الميلاد إلى الهجرة)

الفصل الأول: من الميلاد إلى البعثة
الفصل الثاني: من البعثة إلى الهجرة.

الباب الأول
العهد المكي

الفصل الأول
من الميـــلاد إلى البعثــة

النَّسَبُ الشرِيفُ:

إن الذي يقرأ بعمق في كُتب السِّيَر والتراجم التي تؤرخ لآباء وأجداد النبي ﷺ في العرب، سيجد أنه أمام آباء وأجداد كلهم سادة، يتسمون بالمجد والشرف، يتصفون بأخلاق الحِكْمَةِ والجُودِ والكَرَمِ، يُتَرْجِمون البرّ وصلةَ الرَّحِم واقعًا، ومع أن جميعَهم لم يكونوا من أهل الثراء والغِنى، إلا أنه قد انتهت إليهم الرياسةُ والرفادةُ[1]؛ لمآثرَ وفضائلَ ومكانة تمثّلوها في عصورهم المختلفة، لا نكادُ نجدها عند غيرهم.

ولا نريد هنا أن نؤصل للنَّسَبِ الشريف بترجمة الآباء والأجداد، بقدر ما نريد أن نبيّن شرفَ هذا النَّسَب، فقد كان ﷺ

---

(١) الرفادة: إطعام الحجيج.

عظيمَ الشرف وعريقَ الأصل؛ حيث كان من أشرفِ بيوت مكة وأكرمِها وأسماها بشهادة المؤرخين جميعًا، فهو ﷺ (أَوْسَطُ قَوْمِهِ نَسَبًا، وَأَعْظَمُهُمْ شَرَفًا مِنْ قِبَلِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ)[1]؛ حيث جمع ﷺ العراقةَ والأصالةَ في نَسَبِه من جهتَي الأمومة والأبوّة، فكان ﷺ نخبة بني هاشم، وسلالة قريش وصميمها، وأشرف العرب، وأعزّهم نفرًا من قبل أبيه وأمه، وقد عبَّر النبي ﷺ عن شرف هذا النسب، فقال : "إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ"[2]. وقَالَ الْعَبَّاسُ : بَلَغَهُ ﷺ بَعْضُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، قَالَ : فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَقَالَ : "مَنْ أَنَا" ؟ قَالُوا : أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ : "أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ ، وَخَلَقَ

(١) السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، وآخرون، ط ٢، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر (١٥٧/١).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الفضائل، بَابُ فَضْلِ نَسَبِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَسْلِيمِ الْحَجَرِ عَلَيْهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ (١٧٨٢/٤).

الْقَبَائِلَ ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ ، وَجَعَلَهُمْ بُيُوتًا ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا ".[1]

وقد تعهّده ربه (عز وجل) من الصغر بالتربية المثلى، والتأديب البالغ ، فلا تعجب إذا كان ﷺ المثلَ الكاملَ في جسمِه ، وفي عقلِه ، وفي دينه ، وفي خلُقه ، وفي نسَبِه ، وحَسَبه، "وَالنَّاسُ مَعَادِنُ ، خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا"[2] .

مولده ﷺ :

ولد ﷺ بمكة المكرمة (٥٣ ق.هـ/٥٧١م) في أشرف بيتٍ من بيوت العرب – كما أشرنا في النسب الشريف –؛ حيث تزوج "عبد الله بنُ عبد المطلب" – وكان من أحب ولد أبيه إليه – بالسيدة "آمنة بنت وهب" وهي يومئذ من أفضل نساء قريش نسبًا وموضعًا، فحملت برسول الله ﷺ، ولم يلبث طويلًا أن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٠/١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، بَابُ عَلاَمَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلاَمِ (١٧٨/٤)، (١٩١/٤)، ومسلم في كتاب الفضائل، بَابُ مِنْ فَضَائِلِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ، (١٨٤٦/٤).

ذهب إلى الشام في عيرٍ من قريش في تجارة، وفي طريق عودتهم توقف "عبد الله" عند أخواله (بني النجار) لشعوره بالمرض، وأقام أيامًا قليلة عندهم ثم مات، ودفن بالمدينة، وما زال رسول الله ﷺ جنينًا في بطن أمه، وكان عُمْر "عبد الله" وقتها على أثبت الأَقَاوِيل وَالرِّوَايَات خمسًا وعشرين سنة [1] .

وتُبْرِزُ كتبُ السّيَرِ صفةَ حملِ السيدة "آمنة" بأنها لم تر أخفَّ ولا أيسرَ منه؛ حيث كانت تعبّر بنفسها عن حملها قائلة : (مَا شَعَرْتُ أَنِّي حَمَلْتُ بِهِ، وَلا وَجَدْتُ لَهُ ثِقْلاً كَمَا تَجِدُ النِّسَاءُ) [2] .

ولسنا بصدد ذكر الاختلافات في يوم وشهر ميلاده ﷺ، فمن مجموع الروايات وكتب السِّيَرِ نستطيع أن نقولَ : إن رسول الله ﷺ ولد يوم الاثنين، لقوله ﷺ لما سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الاثْنَيْنِ؟

---

(١) الخصائص الكبرى: جلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية، بيروت (٧٢/١).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، دار الكتب العلمية ، بيروت، (٧٨/١).

قَالَ: "ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ - أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ - فِيهِ" [1].

وأما عن شهر ميلاده فالصحيح أنه في شهر ربيع الأول، وكان ذلك في عام الفيل .

إرضاعه ﷺ وشق صدره :

أولاً : إرضاعه ﷺ :

بعد ميلاد النبي ﷺ، أرضعته أمهُ بضعةَ أيامٍ لا تتجاوز الثلاثةَ إلى السبعة أيام، ثم أرضعته " ثُوَيْبَةُ " مولاة "أبي لهب" بضعةَ أيامٍ أخرى، وقد أشار النبي إلى إرضاعها له فقال : " أَرْضَعَتْنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثُوَيْبَةُ "[2]، ثم بعد ذلك أرضعته السيدةُ "حليمة السعدية"؛ حيث كان من عادة العرب أن يُرْضِعُوا أبناءَهم خارج مكة، فيرضعُوهم في الصحراء المنطلقة، مكانًا وجوًّا؛ ليشبوا في صحة تامة، جسمًا وعقلاً،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصيام، بَابُ اسْتِحْبَابِ صِيَامِ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَصَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ وَعَاشُورَاءَ وَالإِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ (٨١٩/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات، بَابُ الشَّهَادَةِ عَلَى الأَنْسَابِ، وَالرَّضَاعِ المُسْتَفِيضِ، وَالمَوْتِ القَدِيمِ (١٦٩/٣)، ومسلم في كتاب الرضاع، بَابُ تَحْرِيمِ الرَّبِيبَةِ، وَأُخْتِ الْمَرْأَةِ، (١٠٧٣/٢).

وكذلك لما في هواء البادية من الصفاء، وفي أخلاق البادية من السلامة والاعتدال، والبعد عن مفاسد المدنية، ولأنّ لغة البادية سليمةٌ أصيلة[1].

وقصة الرَّضاع مشهورة تناولتها كتبُ السيرِ بالتفصيل، من حيث قدومِ السيدة "حليمة السعدية" إلى مكةَ تتلمسُ من تُرْضِعُه، ثم قبولها في النهاية للرسول ﷺ لمَّا لم تَجِد غيرَه، ثم ما نزل بها وبديارها من أثر إرضاعها له ﷺ من البركة، والإكرام، والخير، والرزق .

وخلال حياته ﷺ في رعاية "حليمة السعدية" وقعت للنبي ﷺ بعضٌ من الإرهاصات التي دلّت على عناية الله به، وحفظه إياه، وعلى بركاتٍ وخيرٍ وفيرٍ لها ولدارها، حيث درَّ ثديُها باللبن بمجرد حلول الرسول ﷺ عليها، فارتوى هو وابنُها الذي كانت تحمله بعد أن كان يبكي من الجوع لعدم قدرتها على إشباعه، ولا ينام هو وأهله، وامتلأ ضرعُ راحلتِها باللبن بعد أن كان يابسًا، فشبعت هي وزوجُها،

(١) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ، ط ١٢، ١٤٢٥هـ دار ابن كثير ، دمشق ، ص (١٦٠).

وسبقت راحلتُها الرَّكْبَ بعد أن كانت عجفاءَ تسير في مؤخرةِ الرُّكبان، وحيثما حلَّت أغنامُ حليمة تجد مرعى خصبًا، ولا تجد أغنامُ غيرها شيئًا، وكان ينمو نموًّا سريعًا لا يشبه نمو الغِلمان، وكلُّ ذلك ما هو إلا شيءٌ يسير مما في قدرة الله، ووقوعه لأصفيائه من البشر[1].

وبعد أن مضى عامان، قدمت به السيدة "حليمة" إلى أمِّه السيدة "آمنة"، وهي حريصة أشد الحرص وأتمّه على أن يبقى معها؛ لما يرون فيه من البركة التي نزلت بهم منذ قدومه، وظلت بها حتى وافقت على عودته ليكمل رسول الله السنوات الأربع الأولى في طفولته معها[2].

ويستفاد مما سبق:

أن رسول الله ﷺ تعلّم اللسانَ العربيَّ الفصيح في باديةِ بني سعد ؛ ولذلك عندما قال له أبو بكر : مَا رَأَيْت أَفْصَحَ مِنْك يَا

(١) السيرة النبوية بين الآثار المروية والآيات القرآنية، محمد بن مصطفى بن عبد السلام الدبيسي، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، إشراف: الأستاذ الدكتور عفت الشرقاوي، عام١٤٣١هـ / ٢٠١٠م، ص (١٦٧).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، (٣٠١/١) بتصرف.

رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: "وَمَا يَمْنَعُنِي، وَأَنَا مِنْ قُرَيْشٍ، وَأُرْضِعْت فِي بَنِي سَعْدٍ"[1]، ومن هنا فلا بد من حسن الاهتمام باللغة العربية في تربية الأجيال، فلقد كان من بين الغايات عند العرب قديمًا نحو تربية الأطفال في بداية حياتهم في البادية إتقان اللسان العربي الفصيح، وهذا درسٌ عظيمٌ لنا للمحافظة على هُوِيَّةِ هذه الأمة والتي هي لغة القرآن (اللغة العربية).

ثانيًا : شق صدره ﷺ :

لقد بدأ رسولُ الله ﷺ في مرحلة النمو والتعلم في قبيلة (بَنِي سَعْدِ بنِ بَكْرٍ) حتى صار يمشي ويتحدث، وقد اعتاد في كلِّ يومٍ بعد الاستيقاظ على الخروج مع أخيه يسوقان أغنامهما ، وهكذا امتلأت أيامُهُما بكل معاني البهجة والبراءة والجمال ، حتى جاءت هذه اللحظةُ التي كانا فيها

---

(١) السيرة الحلبية، إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، للحلبي، أبو الفرج، ط٢، ١٤٢٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٣١/١)، والروض الأنف في شرح السيرة النبوية، للسهيلي، ط ١، ١٤١٢هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٦٧/٢).

معًا خلف أغنامهما، وكانا يلعبان مع الغلمان .

وقد انطلق الغلمان إلى السيدة "حليمة" يقولون : (إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ)، لما رأوا حادثة شق صدره، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَتَاهُ جِبْرِيلُ (عليه السلام) وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ – يَعْنِي ظِئْرَهُ– فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ"، قَالَ أَنَسٌ: "وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ"[1].

ومما يستفاد من حادثة شق صدره ﷺ ما يأتي:

– الإشارة الدقيقة إلى حفظ وعصمة الرسول ﷺ وهو لا يزال طفلًا صغيرًا ؛ حيث قد أزيل منه حظ الشيطان ؛

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، بَابُ الإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى السَّمَاوَاتِ ، وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ، (١٤٧/١).

ما يترتب عليه أن ينشأ نشأة لا مجال لعمل الشيطان معه، وفي ذلك يقول "الزرقاني" : (وَكَانَ هَذَا فِي زَمَنِ الطُّفُولِيَّةِ فَنَشَأَ عَلَى أَكْمَلِ الأَحْوَالِ مِنَ الْعِصْمَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ) [1].

- التسليم المطلق لطلاقة قدرة الله ﷻ، وعدم التعرض لما ليس في حدود العقل بالتأويل، وإلا فإن كلَّ إنسان يعتمد فقط على عقله، ويغفل واجبه تجاه النص المشرف، فإنه لم يلبث حتى يقع في تيهٍ؛ ولذلك يقول ابن حجر : (وَجَمِيعُ مَا وَرَدَ مِنْ شَقِّ الصَّدْرِ وَاسْتِخْرَاجِ الْقَلْبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأُمُورِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ مِمَّا يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ دُونَ التَّعَرُّضِ لِصَرْفِهِ عَنْ حَقِيقَتِهِ لِصَلاحِيَّةِ الْقُدْرَةِ فَلا يَسْتَحِيلُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ) [2].

---

(١) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين بن محمد الزرقاني المالكي (المتوفى: ١١٢٢هـ)، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، دار الكتب العلمية، (٤٩/٨) .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، ط ١٣٧٩هـ، دار المعرفة ، بيروت، (٢٠٥/٧).

ولقد ترتب على هذا الحدث خوفٌ عند السيدة "حليمة" عليه، فردّته إلى أمه السيدة "آمنة" بعد هذا الحدث، وهكذا عاد ﷺ إلى أمّه وقد جاوز الرابعة من عمره؛ لتعمل على رعايته وتتفانى في عنايته وحفظه وتربيته وغرس قيم آبائه وأجداده في مدة لم تطل أن تعيشها معه ﷺ، والتي لم تتجاوز عامين؛ حيث توفيت السيدة "آمنة" وكان عمره ﷺ حينئذ ست سنوات.

* * *

وفاة أمه ﷺ وكفالة جده ثم عمه له:

توفيت السيدةُ (آمنة بنت وهب) بالأبواء[1] بين مكة والمدينة؛ حيث كانت قد قدمت برسول الله ﷺ على أخواله من بني عَدِيِّ بنِ النَّجَّارِ، تزورُهم به، ومعها أم أيمن تحضنه ﷺ، وهم على بعيرين، فنزلت به في دار النابغة، فأقامت به عندهم شهرًا، ثم رجعت به إلى مكة، فلما كانوا بالأبواء توفيت هناك، وكان رسول الله ﷺ حينئذٍ ابن ست سنين.

ومما نستفيده من هذه الزيارة:

- سعةُ ذهن رسول الله ﷺ، وقوة ذاكرته، وتأصيله للماضي، فلمَّا مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ فِي عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَةِ بِالأَبْوَاءِ، قَالَ: "إِنَّ الله قَدْ أَذِنَ لِمُحَمَّدٍ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ"، فَأَتَاهُ رَسُولُ الله ﷺ، فَأَصْلَحَهُ وَبَكَى عِنْدَهُ، وَبَكَى الْمُسْلِمُونَ لِبُكَاءِ رَسُولِ الله ﷺ، فَقِيلَ لَهُ: فَقَالَ: "أَدْرَكَتْنِي رَحْمَتُهَا فَبَكَيْتُ" [2].

---

(١) الأبواء: قرية على يمين الطريق المتجه من المدينة إلى مكة المكرمة.

(٢) المختصر الكبير في سيرة الرسول ﷺ لعز الدين بن جماعة الكتاني، تحقيق: سامي مكي العاني، طبعة ١٩٩٣م، دار البشير، عمان، ص (٢٧).

ولا شك أن هذا التصرفَ من رسولِ الله ﷺ يؤكد على تلك الأحاسيس الهائلة بينه ﷺ وبين أمّه، يتذكر من خلالها تلك الأمومةَ الرائعةَ التي تعهّدته بالتربية، وتفانت في رعايته وحفظه.

- حكمة الأم حيث ملأت وجدانَه بالحديث عن مجد أبيه (عبد الله)، وما كان يتعلق به من بطولات وملاحم القوة وقصة الفداء، بل ذهبت به بعد أن تأكدت من بوادر النضج والاكتمال عنده إلى زيارة المكان الذي مرض فيه والدُه، والقبر الذي دُفن فيه؛ لتربط بين أحداث ووقائع غرستها فيه عن أبيه ، وبين أن يعايش بنفسه والدَه صاحب تلك الأحداث والوقائع ، فيُطَالِعُ في صمتٍ روعةَ التاريخ الذي ذُكر له عن أبيه وهو أمام قبره .

فلما توفيت السيدة "آمنة بنت وهب"، قبضه إليه جدُّه عبد المطلب ، وضمّه ورقّ عليه رِقّةً لم يرقَّها على وَلَدِه ، وكان يقرِّبه منه ويُدْنيه .

ومما يُظهر محبةَ عبد المطلب الشديدة لرسول الله ﷺ، أنه

ماكان يأكل طعامًا إلا قال: عليّ بابني- أي : رسول الله ﷺ - فيؤتى به إليه، فلما حضرت عبدَ المطلب الوفاةُ ، أوصى أبا طالب بحفظِ رسول الله ﷺ وحياطته[1].

وقد سُئل رسول الله ﷺ: أتذكر موتَ عبد المطلب؟ قال: "نعم، أنا يومئذٍ ابن ثماني سنين"، قالت أم أيمن : (رأيت رسول الله ﷺ يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب)[2].

ولما توفي عبد المطلب ضمّ أبو طالب رسولَ الله ﷺ إليه، فأصبح معه، وكان أبو طالب لا مال له ، وقد أغدق عليه من المحبةِ والودّ ، فكان لا ينام إلا إلى جنبه ، ويخرج فيخرج معه[3].

وقد كان إذا أكل عيالُ أبي طالب جميعًا أو فرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا ، فكان إذا أراد أن يغذيَهم قال: كما أنتم حتى يحضر ابني، فيأتي رسول الله ﷺ، فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم، وإن لم

---

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد، (١١٨/١) .

(٢) السابق نفسه، (١١٩/١).

(٣) الجوهرة في نسب النبي ﷺ وأصحابه العشرة ، لمحمد بن أبي بكر الأنصاري التلمساني، (٣٧/٢).

يكن معهم لم يشبعوا، فيقول أبو طالب: إنك لمبارك، وكان الصبيان يصبحون رُمْصًا شعثا، ويصبح رسول الله ﷺ دهينا كحيلًا[1].

ونستطيع أن نتلمس بعض الصفات الرئيسة التي كان يتمتع بها الرسول ﷺ في هذه الفترة من عمره ، والتي منها :

- أنه كان منذ الصغر يحب الجمالَ، ويعشق كلَّ ما هو حَسَن في هذا الوجود، فكان ﷺ في تصرفاته واختياراته يُعبّر عن فنٍّ رفيع من فنون الجمال والزينة؛ حيث كان يستشعر آياتِ الجمال في خلق الله، ويلفت النظر إلى السلوك الجمالي، الذي يمتلئ برهافة الحس والارتقاء بالسلوك، فقد كان أبو طالب توضع له وسادة بالبطحاء مثنيةً يتكئ عليها، فجاء النبي ﷺ فبسطها ثم استلقى عليها، قال: فجاء أبو طالب فأراد أن يتكئ عليها فسأل عنها فقالوا: أخذها ابنُ أخيك، فقال: وحل البطحاء، إن ابن أخي هذا ليحسن بنعيم[2].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ١١٩-١٢٠) بتصرف.

(٢) السابق نفسه (١/ ١٢٠).

– ومما يدل على عظيمِ أخلاقه ﷺ في هذه المرحلة ما كان يتمتع به من قِيمِ الحياء ونزاهة النفس وقناعة القلب، فقد كان لأبي طَالِب جملةٌ من الأولاد، عَيْشُهم به ضَفَفٌ[1]، فَكَانَ يُوضَعُ الطَّعَامُ لَهُ ﷺ وَلِلصِّبْيَةِ مِنْ أَوْلادِ أَبِي طَالِبٍ، فَيَتَطَاوَلُونَ إِلَيْهِ وَيَتَقَاصَرُ هُوَ ، وَتَمْتَدّ أَيْدِيهِمْ وَتَنْقَبِضُ يَدُهُ ؛ تَكَرّمًا مِنْهُ وَاسْتِحْيَاءً وَنَزَاهَةَ نَفْسٍ وَقَنَاعَةَ قَلْبٍ[2].

ولمّا تم له من العمرِ اثنتا عشرة سنة، بدأ بالسعي نحو طلب الرزق والكسب، واشتغل برعاية الأغنام ، والتي كانت لها حكم وغايات سامية ، منها : إعداده ﷺ لسياسة البشر بالرفق والرحمة واللين؛ لأن الغنم وهي الضأن والمعز أضعف من الإبل والبقر، وأحوج إلى الرفق، والإنسان أضعف منها، ولذا يحتاج إلى سياسة الرفق واللين، وعدم الشدة والعنف، فكأنَّ رعيَ رسولِ الله لا يتوقف فقط على مساعدة عمّه أبي طالب؛

---

(١) الضفف: الشدة وضيق العيش، ويطلق على الأكل دون الشبع، أو كثرة الأكلة مع قلة ما يؤكل.

(٢) الروض الأنف، ص ٣١١.

نظرًا لضيق حالِه، بل كان أيضًا دربةً لرسول الله ﷺ على رعاية البشر فيما بعد.

ثم أخذ رسول الله ﷺ يستقبل مرحلةً جديدة في حياته، وهي مرحلة الشباب، والتي لم تُحفظ له فيها صبوة[1]، ولا زلّة[2]، فقد كان ﷺ موفور الأخلاق، طيّبَ الجانب، لَيِّنَ الحديث، لم يسجدْ لصنمٍ، أو يُجالسْ أهلَ العَبَثِ، أو أهلَ اللهو، فقد كفاه الله بعنايته وحفظه وإحاطته.

فقد عَصَمَه الله ﷻ عن جميعِ مظاهرِ الانحراف ؛ ليجعل لشباب النبي ﷺ طريقًا دقيقًا مستقيمًا ، بعيدًا عن كل ما لا يتفق مع مقتضيات الدعوة التي هيَّأه الله لها .

* * *

(١) الميل إلى الهوى.
(٢) السقْطة والخطيئة.

مرحلة الشباب إلى العمل

لم تكن قريش بلدَ زراعةٍ أو صناعةٍ؛ ذلك لأنها كانت بوادٍ غير ذِي زرع كما هو معلوم، ولكنها كانت مشهورةً بين العرب بالتجارة، وبالتالي فموردها الاقتصادي والرئيس هو التجارة.

ومن هنا كان مقتضى هذه الحياة التجارية أن يتجه إليها رسولُ الله ﷺ، وقد علمنا أنه ﷺ قد اتجه إلى رعي الغنم منذ الصغر، وهذا يتناسب مع عمره حينها، ولكنه لما شبّ وكبر، اتجه إلى التجارة الداخلية والخارجية، وعرف الأسواق، وكان لا بد له من السفر ليتعرف على ما تُحمل منها البضائع وما تُحمل إليها (الاستيراد والتصدير) .

فحين بلغ رسولُ الله ﷺ اثنتي عشرة سنة على الراجح، خرج في التجارة مع عمه "أبي طالب"، فدرس شئونَ التجارة وعرفَ أحوالها وكيفيةَ التعامل معها، وقد نزلوا في مكانٍ قريبٍ من الشام يسمى (بُصرى)، وكانت هذه البلدةُ موطنًا لبعض الرّهبان ، الذين كان لهم علم بالكتاب وتبشيراته ، وكان منهم الراهب"بحيرا".

وكانت طبيعةُ "بحيرا" ألا يخرج للقاء القوافل كما هي طبيعة الرهبان، ولكنه قد خرج هذه المرة؛ إذ رأى من البيّنات ما يتفق عنده بما قرأه من تبشيراتٍ برسولٍ يأتي من بعد "عيسى" عليه السلام اسمه "أحمد"، فخرج ليلتقي هذه القافلة، وليتعرف على من تنطبق عليه تلك الأمارات التي يعرفها في كتابه، وقد ظهرت له بعض الأمارات مما ذُكرت في كُتُبِ السِّيَرِ، (كالغمامة التي كانت تظلهم في ركبهم، وكأَغْصَانِ الشَّجَرَةِ التي مالت عَلَى رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى اسْتَظَلَّ تَحْتَهَا) [1].

مشاركته ﷺ في الأمور الجامعة :

لم ينفصل رسول الله ﷺ أو ينعزل عن مجتمعه الذي يعيش فيه، بل كان فاعلًا مؤثِّرًا في مجتمعه ، يهتم بما يقع من نوازل وأحداث، يشارك في كل عمل جماعي هدفه وغايته صناعة الخير والجمال، ومن هنا فما من أمرٍ جامعٍ إلا وذهب

(١) انظر في ذلك: المختصر الكبير في سيرة الرسول ﷺ ، ص (٣٠)، والمبعث والمغازي ، لإسماعيل بن محمد بن الفضل أبو القاسم التيمي قِوام السُّنة، تحقيق: محمد بن خليفة الرَّباح ، ط ١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، دار ابن حزم / بيروت، لبنان، (١/١٣٣-١٣٢) .

إليه رسول الله ﷺ، وشارك فيه ما أتيحت له فرصة المشاركة، وكان ضابطه العام في مشاركاته عدم الرضا بما هو باطل، بل فقط الحق، وكل ما يبشر بالحق ويدعو إليه، وقد كان ﷺ في كل مشاركاته صاحبَ نفسٍ طيبة، لا يحب الصخبَ ولا الشحناءَ، يبتعد عن مواطن العداوة وعن كل ما من شأنه أن يقطع الأواصر والصِّلات ، ومن هنا كان ﷺ بفطرته النقية يبتعد وينفر عن كل ما لا يرتضيه، ما دام بعيدًا عن الحق، وتطالُعنا بعضُ كتب السِّيَرِ عن حضوره ﷺ (دار الندوة) والاستماع إلى كبرائهم.

حَرْبُ الْفِجَارِ:

وهي تلك الحرب التي وقعت بَيْنَ قُرَيْشٍ وَمَنْ مَعَهُمْ مِنْ كِنَانَةَ، وَبَيْنَ قَيْسِ عَيْلانَ وأحلافِها، وقد سُميت بالفِجَار؛ لأنها وقعت في الأشهر الحرم، حيث لا تقاتل؛ إذ تمتنع قبائلُ العربِ عن القتالِ فيها ، وكذلك كان العربُ يعقدون أسواقَ تجارتهم في هذه الأشهر بعكاظ – على مقربة من الطائف – ، وبمجنّة وذي المجاز – على مقربة من عرفات –؛ لتبادل

التجارة وللتفاخر والجدل، وكانت سوقُ عكاظ أكثرَ أسواقِ العربِ شُهْرَة، وفيها أنشد أصحابُ المعلّقات مُعَلّقَاتِهِم[1].

على أن " الْبَرّاض بن قَيْسٍ الكنانيّ" لم يحترم هذه الحرمةَ حين غافل أثناءها "عُرْوَة الرّحّال بن عُتْبَة الهوازنيّ" وقتله، فوقعت تلك الحربُ بين قُرَيْشٍ ومن معها مِنْ كِنَانَةَ من جهة، وقَيْسِ عَيْلانَ وأحلافِها من جهة ، وما وقعت هذه الحرب من جهة قريش إلا دفاعًا عن قداسةِ الأشهر الحرم ، ومكانةِ أرض الحرم ، فكانت حربُ الفِجَار ردعًا لمن استباح الأشهرَ الحرم بالقتالِ فيها ، وقد ظلت هذه الحرب أربع سنوات ، وكان عمر النبي ﷺ حينها بين الخامسة عشر والتاسعة عشر ، كما ورد في كتب السِّيَر[2].

---

(١) انظر في وجه تسمية حرب الفِجَار بهذا الاسم: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي الفاكهي، تحقيق: د. عبد الملك عبد الله دهيش، ط٢، ١٤١٤هـ، دار خضر، بيروت، (١٦٦/٥)، وسبل الهدى والرشاد، (١٥٢/٢).

(٢) انظر في ذلك : البداية والنهاية، (٢٨٩/٢)، ومختصر السيرة النبوية لمغلطاي، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب ط ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، دار المعارف، ص (٢٩).

ومن بين المعاني المستنبطة من مشاركته ﷺ في حرب الفِجار : أنه لم يكن للنبي ﷺ في هذه الحربِ إلا أنه شهد بعضَ أيامِها؛ حيث أخرجه أعمامُه – الذين اشتركوا فيها – معهم؛ مما يدل على حداثة سنه حينها، غير أنه في حرب الفِجَار لم يذهب إلى أبعد من دفع السهام عن أعمامه؛ حمايةً لهم ورحمةً بهم، بموجب الرِّحم الواصلة، لا بموجب الحرب التى أحلّت فيها الحرمات والأشهر الحرم، وقد قال "السُّهيلي" : وَإِنّمَا لَمْ يُقَاتِلْ رَسُولُ اللهِ مَعَ أَعْمَامِهِ، وَكَانَ يَنْبُلُ عَلَيْهِمْ[1]، أَيْ :يرُدّ عَلَيْهِمْ نَبْلَ عَدُوّهِمْ إذَا رَمَوْهُمْ بِهَا، فهو كان درعًا واقية لأعمامه، لأنهم دافعوا عن أنفسهم وديارهم وأموالهم، دفاعًا عن انتهاك حرمة الأشهر الحرم، وقد كان هذا هو عمله فيها، فهو عمل دافع للأذى.

حِلْفُ الفضُولِ :

ولما بلغ النبي ﷺ عامَه العشرين شهِدَ – مع بني هاشم في دار "عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ" بعد حرب الفجار– حِلْفًا

(١) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، (٢/٢٣٣).

لنصرة المظلوم، والأخذ للضعيف من القوي، ومنع النساء واليتامى، والقضاء على القتل والنهب.

وَكَانَ (حِلْفُ الفُضُولِ) هَذَا قبل الْبَعْث بِعشْرين سنة، وَقد وُصِف هذا الحِلفُ بأنه أكْرم حِلْفٍ وأشرفه، وَكان أول من تكلم بِهِ ودعا إِلَيْهِ "الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ"، وَسَببه : أَنَّ رَجُلًا مِنْ (زُبَيْدٍ) بِالْيَمَنِ قَدِمَ مَكَّةَ ببضَاعَةٍ فَاشْتَرَاهَا مِنْهُ العَاصُ بنُ وَائِلٍ، وأَبَى أَنْ يُعْطِيَهُ حَقَّهُ، فَاستَدْعَى عَلَيْهِ "الزُّبَيْدِيُّ" الأَحْلافَ : (عَبْدَ الدَّارِ، ومَخْزُومًا، وجُمَحًا، وَسَهْما، وَعَدِيَّ بنَ كَعْبٍ)، فَأَبَوْا أَنْ يُعِينُوهُ عَلَى "العَاصِ بنِ وَائِلٍ"، وَانْتَهَرُوهُ، ..... فَقَامَ "الزُّبَيْرُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ" عَمُّ النَّبِيِّ ، وَقَالَ: مَا لِهَذَا مَتْرُوكٌ، فَاجْتَمَعَتْ بَنُو هَاشِمٍ، وَزُهْرَةُ، وبَنُو تَيْمِ بنِ مُرَّةَ، وتَدَاعَتْ قَبَائِلُ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى هذا الحِلْفِ، وكان ذلك في دَارِ "عَبْدِ الله بنِ جُدْعَانَ"؛ لِشَرَفِهِ وَسِنِّهِ، فَكَانَ حِلْفُهُمْ عِنْدَهُ، فَتَعَاقَدُوا وَتَعَاهَدُوا عَلَى أن يكونوا جميعًا يَدًا وَاحِدَةً مَعَ المَظْلُومِ عَلَى الظَّالِمِ، وأَنْ لا يَجِدُوا بِمَكَّةَ مَظْلُومًا مِنْ أَهْلِهَا وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ سَائِرِ النَّاسِ إلا قَامُوا مَعَهُ وَكَانُوا عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ حَتَّى تُرَدَّ عَلَيْهِ مَظْلِمَتُهُ ويعودَ إِلَيْهِ حَقُّهُ،

وقَالُوا: لَقَدْ دَخَلَ هَؤُلاء في فَضْلٍ مِنَ الأَمْرِ، ثُمَّ مَشَوْا إِلَى العَاصِ بنِ وَائِلٍ، فَانتزَعُوا مِنْهُ سِلْعَةَ الزُّبَيْدِيِّ فَدَفَعُوهَا إِلَيْهِ؛ فَسَمَّتْ قُرَيْشٌ ذَلِكَ الْحِلْفَ حِلْفَ الْفُضُولِ.

وقِيلَ: سُمِّيَ حِلْفَ الفُضُولِ، لأَنَّ أَوَّلَ مَنْ دُعِيَ إِلَيْهِ ، ثَلاثَةٌ ، كُلُّهُمُ اسْمُهُم الفَضْلُ ، وهُمْ : الفَضْلُ بنُ فُضَالة، والفَضْلُ بنُ وَدَاعَةَ ، والفَضْلُ بنُ الحَارِثِ [1].

ولقد سُرَّ النبيُّ ﷺ؛ لشهوده ذلك الحِلْف ، وأشاد به بعد بعثته ، حيث قال :" لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الإِسْلامِ لأَجَبْتُ "[2].

ويستفاد من ذلك :

- سرعة مشاركة النبي ﷺ في كل ما يؤكد قيمَ التعاون والتمدّن واستقرار الأمن .

---

(١) البداية والنهاية ، لابن كثير، (٢/٣٥٦-٣٥٧)، والقول المبين في سيرة سيد المرسلين، محمد الطيب النجار ، دار الندوة الجديدة بيروت ، لبنان، ص (٩٩).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ، بَاب إِعْطَاءِ الْفَيْءِ عَلَى الدِّيوَانِ ، (٦/٥٩٦) .

- نزوعه المبكّر إلى إسداء العون إلى مَنْ نزل به كربٌ أو ظُلمٌ، في إشارةٍ دقيقةٍ إلى هذه الإنسانية التي تزَيّن بها ﷺ.

- التأكيد على هذا الميثاق العظيم، الذي يدعو إلى الدفاع عن ردِّ الحقوق، وحماية المستضعفين؛ حتى يأمن كلُّ إنسان على ماله وأولاده، وقد ظهر ذلك جليًّا وواضحًا في اعتزازه بمشاركته في ذلك الحِلْف، وكذلك بتمسّكه به حتّى بعد البَعثة في قوله : " وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الإِسْلامِ لأَجَبْتُ "[1].

- أن القيم الإيجابية تستحق الإشادة بها، وهذا ما فعله رسول الله حين قال : "لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ"[2].

* * *

(١) سبق تخريجه ، ص ٤١.
(٢) سبق تخريجه ، ص ٤١ .

التجارة في مال السيدة خديجة (رضى الله عنها) وزواجه ﷺ بها:

ولما بلغ ﷺ من العمر خمسًا وعشرين سنة خرج في تجارةٍ للسيدة "خديجة" -رضي الله عنها- مع غلامها "مَيْسَرة"، وذلك قبل أنْ يتزوّجها، وكانت هذه هي المرة الثانية التي خرج فيها إلى الشام في تجارة، وقد (.....بَاعَتْ خَدِيجَةُ مَا جَاءَ بِهِ ﷺ مِنْ تِجَارَةٍ فَرَبِحَتْ ضِعْفَ مَا كَانَتْ تَرْبَحُ، وأَضْعَفَتْ لَهُ ﷺ ضعْف مَا كَانَتْ تُعْطِي رَجُلا مِنْ قَوْمِهِ[1].

وحين رأت السيدة "خديجة" -رضي الله عنها- في مالها من البركة كما ما لم تر من قبل، ولما أُخبرت بشمائله الكريمة، والتي عاينت بعضَها بعد تجارته ﷺ في مالها، بالإضافة إلى ما كان معلومًا ومعروفًا عنه ﷺ بين قومه، تحدّثت بما في نفسها لإحدى صديقاتها " نفيسة بنت منبه"، والتي

---

(١) اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون «دراسة محققة للسيرة النبوية»، موسى بن راشد العازمي، ط١، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، المكتبة العامرية للإعلان والطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، (١٢٢/١).

ذهبت على الفور لتحدِّثَ رسولَ الله عن ذلك، وقد رضي رسول الله ، وكلّم أعمامه، فذهبوا لخِطبة السيدة "خديجة"، وإثر ذلك تم الزواج.

مشاركة النبي ﷺ في بناء الكعبة :

إنَّ الْقَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ تعاونت ، وجَمَعَتْ الْحِجَارَةَ لِبِنَائِهَا، كُلُّ قَبِيلَةٍ تَجْمَعُ عَلَى حِدَةٍ، ثُمَّ بَنَوْهَا، حَتَّى بَلَغَ الْبُنْيَانُ مَوْضِعَ الرُّكْنِ (الحَجَر)، فَاخْتَصَمُوا فِيهِ ؛ لأن كُلَّ قَبِيلَةٍ تُرِيدُ أَنْ تَرْفَعَهُ إِلَى مَوْضِعِهِ دُونَ الأُخْرَى ، حَتَّى إن كلَّ قبيلة تحيّزت إلى جهة، بل ووصل الأمر إلى قمة الخصومة بأن تحالفوا وَأَعَدُّوا لِلْقِتَالِ،.....، ثُمَّ إِنَّهُمْ اجْتَمَعُوا فِي الْمَسْجِدِ، وَتَشَاوَرُوا وَتَنَاصَفُوا واتفقوا على أن يجعلوا أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ يَقْضِي بَيْنَهمْ فِيهِ ، فَفَعَلُوا. ولحكمة عالية كَانَ أَوَّلَ دَاخِلٍ عَلَيْهِمْ هو رَسُولُ الله ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: هَذَا الأَمِينُ، رَضِينَا، هَذَا مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ، قَالَ ﷺ: هَلُمَّ إِلَيَّ ثَوْبًا ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَأَخَذَ الرُّكْنَ فَوَضَعَهُ فِيهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: لِتَأْخُذَ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنْ الثَّوْبِ ، ثُمَّ ارْفَعُوهُ

جَمِيعًا، فَفَعَلُوا : حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ ، وَضَعَهُ هُوَ بِيَدِهِ ، ثُمَّ بَنَى عَلَيْهِ [1].

ومما هو جدير بالذكر هنا أن رسول الله ﷺ قد شارك في بناء الكعبة لما بلغ من العمر خمسًا وثلاثين سنة ، ومن بين المعاني التي تستفاد من مشاركته ﷺ في بنائها :

– مدى حكمة النبي ﷺ أن يُجنّبَ العربَ مخاطرَ الحرب وإن اختلفت مقاصدهم وأهدافهم لتحقيق غاية واحدة.

– مدى سمو منزلته ﷺ بين رجال قريش على اختلافهم؛ فلقد علمت قريش كلها بكمال عقله، وقوة إدراكه ، فرضيت به حكمًا ، ساعة أن احتدم الجدل بينهم؛ لأنه سيكون حكمَ العقلِ والحق.

– الشرف العميق الذي ناله رسولُ الله ﷺ، فقبائل العرب وإن كانت قد رضيت بأن تفوز كلٌّ منها بنصيب من رفع

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي ، ط ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ، (٢٩٣/٧)، وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، (٥٤/١) .

الحجر، وقد كانوا يتنافسون فيما بينهم لرفعه، فإن الشرفَ كلَّه كان لرسول الله ﷺ؛ إذ كان هو الرافعُ للركن حقيقة، والذي وضعه بيده في المكان الذي وضعه فيه أبوه إبراهيم -عليه السلام- من قبل عندما رفع قواعد البيت.

* * *

الفصل الثاني
من البعثة إلى الهجرة

نزول الوحي وآثاره

ابتداء نزول الوحي عليه ﷺ:

من خلال أمين الوحي جبريل- عليه السلام- بدأ الوحيُّ المشرَّفُ، ونزلت أولُ آيات القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[1]، وكان ذلك في يوم الاثنين، كما نصّ على ذلك بنفسه ﷺ؛ حيث سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الاثْنَيْنِ؟ فقَالَ:"ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ -أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ"[2].

وهنا يأتي هذا الموقفُ الرائعُ للسيدة خديجة - رضي الله عنها- والتي كانت أعظمَ من آنست رسولَ الله ﷺ عند ابتداءِ الوحي، فسارعت تُهَدِّئُ من روعه، وتُثْبِتُ له بالدليل، وبعقليةٍ ثاقبةٍ راجحةٍ مُدركةٍ، وخلفيةٍ مُجرّبة، مُذَكِّرة إياه بصفاتِه النفيسة المعروفة بينهم، بأن الذي جاءه

---

(١) سورة العلق: آية رقم (١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الصيام، بَابُ اسْتِحْبَابِ صِيَامِ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَصَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ وَعَاشُورَاءَ وَالإِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ، (٨١٩/٢).

هو الحقُّ من ربِّه، فلما نزل الوحيُ على رسولِ الله ﷺ، وأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، وقَالَ: "لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي"، قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ بحسن استنباطها مما فيه ﷺ من خِصالٍ شريفة : (كَلا أَبْشِرْ، فَوَاللهِ لا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، وَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ)[1] .

فتور الوحي وفقه الإعداد لرسول الله ﷺ:

عاد رسول الله ﷺ بعد لقاءِ الوحي في غار حِراء إلى زوجه السيدة خديجة بنت خويلد -رضي الله عنها-، يقول : "زملوني زملوني"، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْع، وهذا الرَّوعُ كان أمرًا وانفعالاً طبيعيًّا، فهذا المَلَكُ جبريلُ - عليه السلام- مُتَّصِلٌ بِبَشَرٍ هو محمد بن عبد الله ، ولا بد أن يحدثَ ذلك للرسول ﷺ؛ وذلك حتى تتمَ له تهيئةٌ خاصة لِما هو مُقبلٌ عليه من استقبال المَلَك والوحي .

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ، كتاب كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ (٧/١)، ومسلم في كتاب الإيمان ، بَابُ بَدْءِ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ (١٣٩/١) .

لكن أيظل هذا الرَّوْعُ ، وتلك الرجفة التي تعرّض لها مع بداية الوحي فحسب؟ لا، إن الوحيَ يَفتر لفترة؛ فيشتاق الرسولُ ﷺ إليه، ويصير قادرًا على تحمله.

لقد كان فتورُ الوحي المشرّف إعدادًا إلهيًّا لرسول الله ﷺ، فحين جاء الوحي لأول مرة أجهد رسولَ اللهِ ﷺ، ثم فتر الوحيُ ليستريح ﷺ، وتتجدد قدرتُه على استقبالِ الوحي من بعد ذلك، فشاء الله ﷻ بفتور الوحي أن يعطيَه طاقةً تزيد من حركته، وتزيد من جهده؛ ليشتاق ﷺ لأمر الوحي. وبذلك أعانه الحق على مهمته، وفي هذا أبلغ ردٍّ على من قالوا: (إن ربَّ محمدٍ قد قلاه)، وإثبات أن الحقَّ قد شاء لفترة فتور الوحي أن تكون كالليل سكونًا ، ليهدأ ﷺ بعد الضحى المجهد الذي استقبل به الوحي .

بدايات انطلاق الدعوة :

بمجرد نزول الوحي على رسول الله ﷺ ، بدأ في ترجمته واقعيًّا وتحويله إلى خُطط تطبيقية ، فأخذ يدعو إلى ما أمره الله به بحكمة عالية، وببراعة فائقة، متلمسًا الأدوات

والآليات الممكنة حينها للدعوة إليه ﷺ؛ لأجل هذا كان التفكير النبوي المشرف بأن يبدأ دعوته لا في المجالس العامة، ولا في اللقاءات الجامعة، بل بدأ الدعوة سرًّا؛ حذرًا من مفاجأة قريش بما يدفعهم إلى الحماسة الجارفة والاندفاع الطائش والتعصب الممقوت، والقسوة، والعنف؛ لما هم عليه من شرك ووثنية؛ مما يدفعهم إلى مقاومة وإنكار الدعوة إلى الله الواحد ونبذ عبادة الأصنام.

الجهر بالدعوة :

عندما نزل قولُه تعالى : ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[1] استجاب نبينا ﷺ لأمر ربِّه ، وصدع بالأمر ، وأعلن الدعوة إلى الخلق أجمعين، وبذلك انتقل رسول الله ﷺ بالدعوة إلى ما هو أوسع وأعم؛ حيث انتقل بالدعوة من الأقرباء والأصدقاء الأبرار إلى جميع قريش قريبهم وبعيدهم، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضى الله عنهما)، قَالَ: (لَمَّا نَزَلَتْ

(١) سورة الحجر: آية رقم:٩٤.

هَذِهِ الآيَةُ:﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1]، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: "يَا صَبَاحَاهْ"، فَقَالُوا: مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتِفُ؟ قَالُوا : مُحَمَّدٌ ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ: "يَا بَنِي فُلانٍ ، يَا بَنِي فُلانٍ ، يَا بَنِي فُلانٍ ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ"، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ...) [2].

وفي هذه المرحلة من الدعوة استثمر النبيُّ ﷺ كلَّ الإمكانات المتاحة، وعمل على حُسْنِ الاستفادة منها .

وبالإضافة إلى ما يقوم به ﷺ من الجهر بالدعوة للجميع في قريش، فقد استثمر أيضًا وجودَ وفودِ القبائل العربية التي تأتي لزيارة البيت الحرام، فعمل جاهدًا على نشر الدعوة بينها، ولا شك أن هذا الأمر قد أثمر نتاجًا مُنيرًا؛ حيث أسلم الكثيرُ من هذه الوفود، وصاروا بعد ذلك دعاة للإسلام .

---

(١) سورة الشعراء: آية رقم : ٢١٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، بَاب قَوْلِهِ تَعَالَى : "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" (١/١٩٣).

الإيذاء والفتنة والثبات على الأمر:

لقد أراد رسول الله ﷺ الوصول من خلال الدعوة الإسلامية إلى تنقية التفكير وإلى البحث السليم، واستهدف مقصودًا جليلًا عزيزًا، وهو اليقين والتفكير الحرّ، الذي يقود إلى كمال الإيمان بالله ﷻ، وتَرْكِ ما كان عليه الآباء والأجداد من عبادة الأصنام، وقد اتخذ النبيُّ ﷺ كلَّ أداةٍ تُمَكّنُه من ذلك، ولم يألُ أي جهد فيه، بل كان يدعو إلى الله متصفًا في نفسه بالشجاعة والعزيمة والصبر وقوة التحمل، وفي قلبه باليقين والاطمئنان وحسن التوكل على الله، وفي دعوته بالرحمة واللين والحكمة والموعظة الحسنة .

إلا أن قريشًا قد عادت رسولَ الله ﷺ وأصحابَه رضي الله عنهم، وَوَقَعَتْ ألوانٌ وصنوفٌ من الإيذاء له ولأصحابه، فلقوا من عداوة مشركي قريش وعَنَتِهِم الشيءَ الكثير، مع اعتبار عدم ردِّ المسلمين عليهم، بل كان المسلمون يدعون إلى سبيل ربّهم بالحكمة والموعظة الحسنة، يتفاعلون مع المجتمع بِسِمَاتِ الرحمة واللين، يتحمّلون وسائلَ الإيذاءِ

المختلفة في سبيل الله ﷻ، متصفين بالصبر والحِلم، وتتنزل عليهم الآيات القرآنية المشرّفةُ التي تُخْبِرُ عن فسادِ عادات المشركين وتقاليدهم وأفكارهم الموروثة .

ومن النماذج التي وردت في هذا الإيذاءِ الواقع لرسول الله ﷺ، ما جاء عن عُرْوَةَ بن الزُّبَيْرِ ﷺ قَالَ: (سَأَلْتُ ابْنَ عَمْرِو بن الْعَاصِ، أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ شَيءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: بَينَما النَّبِيُّ يُصلِّي في حِجْرِ الْكَعْبَةِ، إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْطٍ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ في عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أبو بَكْرٍ ﷺ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَن النَّبِيِّ وقَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[1]) [2].

وأما عن الإيذاء الواقع لصحابة النبي ﷺ ، فقد وقع لكثير منهم ، كبلال بن رباح [3] وعمّار وأبواه ياسر

---

(١) سورة غافر: الآية رقم (٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار/ بَابُ مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مِنَ المُشْرِكِينَ بِمكَّةَ، (٤٦/٥) .

(٣) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود ، وعلي محمد معوض، ط١،١٤١٥هـ، دار الكتب=

وسمية[1]، وخباب بن الأرتّ[2]،وصهيب الرومي[3]، وغيرهم، ولم يتوقف إيذاءُ المشركين للمسلمين على الإيذاء الجسدي فقط، بل إنَّ المشركين استحلوا أموالهم فأكلوها بالباطل.

لقد حاولت قريشُ أن تنال من رسول الله ﷺ ومن أصحابه، وأن تردَّ دعوتَه بوسائل مختلفة، ولكن لما رأت ثبات المؤمنين على الإسلام، لجأت إلى سياسة جديدة وهي سياسة المفاوضات، فأخذ المشركون يسلكون ثلاثةَ مسالك مع الإيذاء والاضطهاد[4]:

أولها : محاولة استمالة النبي (عليه الصلاة والسلام) ليمنعوه

=العلمية، بيروت(٤٥٦/١) والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط ١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، دار الجيل، بيروت (١٧٩/١).

(١) انظر: الإصابة، (٤٧٣/٤، ٤٧٤)، والاستيعاب، (١١٣٦/٣).

(٢) انظر: الإصابة، (٢٢١/٢)، والاستيعاب، (٤٣٨/٢-٤٣٩).

(٣) انظر: الإصابة، (٣٦٥/٣)، والاستيعاب، (٧٣١/٢، ٧٣٢)، وطبقات ابن سعد: (١٧١/٣).

(٤) انظر: خاتم النبيين، ص (٣٣٤)، وما بعدها.

من الجهر بدعوته، وذلك عن طريق عرض المال عليه أو السيادة أو المُلك، ظنًّا منهم بتفكيرهم الضال أن هذه هي وسائل الشرف والرفعة، وأن الإنسان لا يستطيع أن يتركها بحال.

وثانيها: مجادلته.

وثالثها: الشكوى منه لعمه أبي طالب.

إلا أنها جميعها لم تنجح مع قوة وثبات النبي ﷺ والصحابة على الإيمان .

* * *

الهجرة إلى الحبشة وأسس التعايش مع الآخر:

إن الهجرة إلى الحبشة هي أحد النماذج الإسلامية، التي تُبَصِّر الخَلْقَ بجمال وحُسن الشريعة الإسلامية، التي تُيَسّر على المسلمين العيش في أي مكان بمنهج الله ﷻ .

لقد كانت الهجرة إلى الحبشةَ هِيَ أَوَّل هِجْرَةٍ هَاجَرَ إِلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ، وكانت في السنة الخامسة من مبعث النبي ﷺ، والغاية الرئيسة منها : الأمان والأمن، وقد اختُلِف في عدد من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارًا، أو ولدوا بها، فقيل : ثلاثة وثمانون[1]، وقيل : ثمانون، كما جاء عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: (بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّجَاشِيِّ، وَنَحْنُ نَحْوٌ مِنْ ثَمَانِينَ رَجُلاً)[2] .

خطة الهجرة إلى الحبشة:

ونستطيع أن نلمح من جملة ما كُتب [3] عن الهجرة إلى الحبشة ، أنها قد اشتملت في خُطتها على ركنين

---

(١) البداية والنهاية، (٨٥/٣).

(٢) مسند أحمد، (٤٠٨/٧).

(٣) انظر: إمتاع الأسماع،(٣٧/١) وما بعدها، ونهاية الإيجاز في سيرة ساكن=

رئيسين، وضعهما الرسول ﷺ بحكمة القائد البصير المدرك للواقع والأحداث :

الركن الأول: عامل المفاجأة؛ وهو أن تكونَ هجرةُ الصحابة إلى الحبشة بصورةٍ خفية، وذلك حتى لا ينتبه المشركون لهم ولخطة الهجرة، فيسارعون إلى إحباطها، ومن ثم يشتد الإيذاء بصورة أبلغ لهم .

الركن الثاني: النطاق الضيق؛ وهو أن تكون الهجرة إلى الحبشة في شكل مجموعات قليلة، وليست على نطاق واسع، وذلك حتى لا ينتبه إليها نظرُ المشركين .

وقد قام الصحابة بتنفيذ هذه الخطة على أكمل ما يكون، وأيّدها الله ﷻ بالنجاح، فخرج الصحابة -رضي الله عنهم- في شكلٍ قريبٍ من أُسَرٍ متفرقة وبعدد قليل، واتجهوا نحو البحر، واستقلوا سفينتين تجاريتين، اتجهت بهم - رضي الله عنهم- إلى الحبشة، وبمجرد وصول الصحابة إلى الحبشة لقوا معاملة طيبة ، وتحققت لهم رؤية رسول الله ﷺ

= الحجاز ، رفاعة الطهطاوي ، ط١، ١٤١٩هـ ، دار الذخائر ، القاهرة ، ص(١١١-١١٣).

من حيث الحماية والأمن.

المقاطعة وسياسة الحصار الاقتصادي :

على الرغم من كل ما قامت به قريش من محاولات لصدِّ هذه الدعوة، وما قاموا به من إيذاء وتعذيب واضطهاد، وما قدموه من حِيَلٍ ووسائل مختلفة؛ بغية تحقيق ما يريدون من وقفٍ لهذه الدعوة، إلا أنهم قد اعتزموا أمرًا آخر لا يبالون معه لا أبا طالب ولا بني هاشم، حيث أجمعوا أمرَهم على منابذة ومقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب، والتضييق عليهم من خلال حصار اقتصادي ومعنوي واجتماعي، حصار لا بيع فيه ولا شراء ولا مصاهرة ؛ بغية أمر واحد فقط، وهو النيل من رسول الله ﷺ[1].

* * *

(١) انظر في تفصيل ذلك : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس، اليعمري الربعي، أبو الفتح، فتح الدين، تعليق: إبراهيم محمد رمضان ، ط١، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م، دارالقلم، بيروت، (١/١٤٨) .

النبوة بعد عام الحزن

موقف النبي ﷺ في عام الحزن :

عُرِف العام العاشر من البعثة بـ (عام الحزن)؛ وذلك لأن هذا العام قد شهد وفاة أبي طالب عمّ رسول الله ﷺ، والسيدة خديجة (رضي الله عنها).

فأما أبو طالب، فقد كان في حياته شديد الدِّفاع عن رسول الله ﷺ، وقد كان لَهُ عَضُدًا وَحِرْزًا فِي أَمْرِهِ، وَمَنَعَةً وَنَاصِرًا عَلَى قَوْمِهِ[1] من أن ينالوا منه ﷺ، ما دام حيًّا، فهو يذبّ عنه ويرد كلَّ من يُؤذيه، فلما مات تجرأت قريش وشدّدت في الإيذاء؛ ولذلك كانت وفاته مبعثَ حزنٍ عميق للنبي ﷺ.

ثم ماتت السيدة خديجة -رضي الله عنها- في نفس العام بعد وفاة عم النبي بثلاثة أيام، وَكَانَتْ لَهُ وَزِيرَ صِدْقٍ عَلَى الإِسْلامِ، وكانت تخفف عن رسول الله ﷺ همومه وما يلقاه من عداوة قريش، فقد آمنت به، وآزرته في أصعب

(١) السيرة، لابن هشام، (٤١٦/١) .

الأحوال والأوقات، وأعانته على إبلاغ رسالته، وواسته بنفسها ومالها وذاتيتها، وشاركته كل ما مر به من أعباء.

الخروج إلى الطائف وعرض الإسلام على القبائل:

بعدما توفي أبو طالب وتوفيت السيدة خديجة –رضي الله عنها – اشتد البلاءُ من قريش على رسول الله ﷺ، فبدأ يفكر بالخروج من مكة إلى مكان آخر، لعله يجد قبولًا واستجابةً للرسالة؛ حيث قام النبي ﷺ بأمرين، هما :

١– الخروج إلى الطائف : حيث خَرَجَ رَسُولُ الله إليها، يَلْتَمِسُ النُّصْرَةَ مِنْ ثَقِيفٍ، وَالْمَنَعَةَ بِهِمْ مِنْ قَوْمِهِ، وَرَجَاءَ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ الله ﷻ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ وَحْدَهُ[1]، ولكنه لما انتهى إلى الطائف لم يجد إلا الإيذاء والإعراض[2]، فلم يكونوا أقلَّ قسوة من أهل مكة، فلما لم

---

(١) السيرة، لابن هشام، (٤١٩/١).

(٢) انظر تفصيلًا: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله، سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الكلاعي الحمير، أبو ربيع، ط١، ١٤٢٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢٤٦/١)، ودلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني، تحقيق: الدكتور محمد رواس قلعه جي، عبد البر عباس، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، دار النفائس، بيروت، (٢٦٦/١) .

يجد ﷺ النصير، وعزّ عليه أمره، وابتعد عن الطائف، وجلس قريبًا إلى حائط بستان ، يستظل بظل شجرة، حتى اطمأن، ناجى ربَّه ﷻ بدعاءٍ كله مقومات الإيمان واليقين، حيث قَالَ:"اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي، إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي أَوْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي، إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضْبَانَ عَلَيَّ فَلا أُبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِكَ"[1].

٢- عرض نفسه على القبائل؛ حيث كَانَ رَسُولُ الله يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى الْعَرَبِ فِي مَوَاسِمِهِمْ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الله، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَيَسْأَلُهُمْ أَنْ يُصَدِّقُوهُ وَيَمْنَعُوهُ حَتَّى

(١) المعجم الكبير ، للطبراني ، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد ، ط٢، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، (٧٣/١٣).

يُبَيِّنَ لَهُمْ اللَّهُ مَا بَعَثَهُ بِهِ [1].

وهكذا ظل رسولُ الله ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ فِي الْمَوَاسِمِ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ أَنْ يُؤْوُوهُ أَوْ يَنْصُرُوهُ لِيُبَلِّغَ رِسَالاتِ رَبِّهِ، فَلَمْ يَقْبَلْهُ أَحَدٌ، إِلَى أَنْ قَيَّضَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ الأَنْصَارَ فَبَايَعُوهُ، وَأَذِنَ لأَصْحَابِهِ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَانْتَظَرَ هُوَ ﷺ لِيَأْذَنَ اللَّهُ ﷻ لَهُ فِي الْهِجْرَةِ [2].

ومن بين المعاني التي نستطيع أن نستنبطها من سيرته المشرفة ﷺ في عام الحزن وتبعاته ، ما يأتي :

- الشكوى إلى الله تعبّد ؛ فإذا أعيتك الأسباب ، وكنت في موقف المضطر، فقف ضارعًا بين يدي الله ﷻ، وهذا درس آخر من أروع الدروس بعد عام الحزن في سيرة النبي ﷺ؛ حين ناجى ربه قائلًا : "اللهم إني أشكو ضعف قوتي ... إلخ".

- الرؤية المستقبلية ، فبعد المناجاة النبوية المملوءة بقمة

---

(١) السيرة، لابن هشام، (٤٢٢/١)، وما بعدها.

(٢) دلائل النبوة، للأصفهاني، (٢٦٦/١).

اليقين والإيمان، أتت الإجابة من الله ﷻ من خلال ملَك الجبال، والذي قال له : إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟، غير أن رسول الله ﷺ كانت له هذه الرؤية العميقة والبصيرة النبوية التي تجلّت في كلامه ﷺ، وهو ينظر للمستقبل ويستشرفه ويحاول استدعاء ما يرجوه ؛ حيث قال : "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا".

- الرحمة واللين، فبالرغم مما وقع له ﷺ من إيذاء، إلا أنه لم يدعُ عليهم، وإنما دعا لهم ﷺ .

الإسراء والمعراج (**حكم وأسرار**) :

لقد جاء الإسراء والمعراج؛ للإشارة إلى أنه إن فاتته ﷺ حماية العم – بوفاته – فإنه محاط بحماية الربِّ ﷻ، ولئن فاتته مؤانسة الزوج – بوفاتها – فإنه مشمول بمؤانسة الملأ الأعلى، ولئن أحاط به تكذيبُ أهل مكة وأذاهم، فإنه مصدّق من أهل السماء، مكرّم فيهم غاية التكريم[1].

---

(١) فتح المنعم شرح صحيح مسلم، موسى شاهين لاشين، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، دار الشروق، (١/٥٤٠).

فبعد أن استنفد النبي ﷺ الأسباب، وناجى ربَّه متضرّعًا بدعاءٍ يشمل كلَّ مقومات الإيمان واليقين، أرادت مشيئتُه – سبحانه وتعالى– مستجيبة لضراعة النبي ﷺ أن تعوضَه عن جفاء أهل الأرض بحفاوة أهل السماء، والاطلاع على بعض الآيات الكونيّة، فقد تركه الله ﷻ لينفعل للأسباب والبدائل المطروحة ليجتهد فيها؛ وذلك حتى يكون أسوة للأمة كلها في ألا تدع الأسباب التي يسّرها الله ابتداءً والاجتهاد فيها .

الزمن في الإسراء والمعراج :

ما دام الله ﷻ هو الفاعل في الإسراء، إذن فالفعل هنا إنما هو بقدرته – سبحانه وتعالى– وإمكاناته، ومعلوم أنه إذا انتقل الإنسان من مكانٍ إلى مكانٍ آخر، حسب قدرته وإمكاناته، فلا بد له من زمن لهذا الانتقال، وهذا الزمن يتناسب مع تلك القدرة والإمكانية تناسبًا عكسيًّا، فكلما زادت القدرة والإمكانية قلَّ الزمن.

ولما كان الإسراءُ بقدرة الله ﷻ، الذي لا يعجزه شيء، وبإمكاناته التي لا يستطيع العقل أن يستقل بإدراكها،

وبإرادته التي خصصت الكون كلّه لاستقباله ﷺ، وبعلمه الذي لا يعزب عنه صغيرة ولا كبيرة، كان بالضرورة أن زمن هذه المعجزة (الإسراء) يتناسب مع كل هذه الصفات الإلهية، ومعنى ذلك أن النتيجة (لا زمن)، ومن هنا يأتي السؤال : إذا كان لا زمن في الإسراء والمعراج، فلماذا ذكر الله ﷻ أنها أخذت زمنًا، وهو الليلة، حين قال : ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا ﴾[1]؟

والإجابة : أن هناك فرقًا واسعًا بين حدث الإسراء في ذاته، أي : بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان، وبين المرائي التي رآها ببشريته، فالإسراء في ذاته، والذي هو انتقال من مكان إلى مكان، ليس فيه الزمن؛ لأن الفاعل فيه هو الله، وأما المرائي التي رآها ببشريته، فهي التي احتاجت إلى زمن؛ ثم إن رسول الله لم ينسب الإسراء إلى نفسه، بل إن الأمر متعلق بقدرته ﷻ[2].

---

(١) سورة الإسراء: آية رقم (١).

(٢) المواهب اللدنية، للقسطلاني، (٤٣١/٢).

إن الحركة في الإسراء والمعراج بهذه السرعة ممكنة في نفسها، فقد جاء في القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان – عليه السلام– إلى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة، فقد قال تعالى : ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾[1]، وجاء فيه أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر ، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[2]، وإذا جاز هذا لدى طائفة من الناس جاز لدى جميعهم.

ثم إن ما يُستجدّ كل يوم من ضروب المخترعات، والتوصل بها إلى طيِّ المسافات، وقطع المحيطات في قليل الساعات، من قارة إلى قارة ، ومن قطر إلى قطر، ليجعلنا نعتقد أن ما جاء في وصف هاتين الرحلتين من الأمور

(١) سورة سبأ: آية رقم (١٢).

(٢) سورة النمل: آية رقم (٤٠).

الميسورة التي ليست بالعزيزة الحصول أو الأمور المستحيلة[1].

الفرق بين الرؤية والإراءة :

إن الإراءة هي أن تجعل من لا يرى يرى، وذلك إما بتحويل المرئي إلى قانون الرائي، أو بنقل الرائي إلى قانون المرئي.

وبالنظر في رحلة الإسراء فهي رحلة أرضية انتُقِل فيها برسولِ الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وكانت فيها الإراءة، فقال تعالى : ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ لأن محمدًا ﷺ على الأرض، وبشري بقانون البشرية، وقانون الإبصار فيه خاضع لقانون الضوء، وقانون الضوء لا يختلف فيه أحد، فإذا كانت هناك آيات من غيب الله في الأرض، فلا بد أن تحدث له إراءة؛ لأنه بطبيعته لا يرى هذه الأشياء، فالإراءة إذن ناسبت الإسراء.

---

(١) تفسير المراغي، (١١/١٥).

إن رسول الله ﷺ في رحلة الإسراء، حين كان جبريل -عليه السلام- يعرض عليه الأشياء، يقول : "ما هذا يا جبريل ؟"، فيقول : هذا كذا وكذا، ولكن لما صعد ﷺ إلى السماء كان يرى المرائي، فلا يستفهم من جبريل- عليه السلام- عنها، فناسب أن يقول الله ﷻ : ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾. ومعنى هذا أن هناك شيئًا تغيّر في ذاتيته ﷺ، وأصبحت له ذاتية فاهمة بلا واسطة جبريل -عليه السلام-، ففي الأرض إراءة، وأما في السماء فقد رأى بالرؤية[1].

المَرائي في الإسراء والمعراج :

لقد أرى اللهُ رسولَه بعضًا من المرائي[2] في صورة الثواب أو العقاب الذي يناله من وافق والتزم التكليف أو من خالف وخرج عن مقتضى التكليف، والغاية من هذه المرائي: الارتقاء بكريم الأخلاق ، والوصول إلى مجتمع مترابط نقي زكي النفس .

---

(١) انظر: الإسراء والمعراج، الشيخ الشعراوي، ص (٥٠-٥٣).

(٢) انظر فيما ورد عنها : فتح الباري، (٢٠٠/٧)، وفتح المنعم، (٥٥٦/١) .

وقـد أتـت هـذه المرائـي بطريقـة عمليـة لتؤسـس المجتمع الإسلامي على عدة أمور، منها :

- أن يتحمل الأمانات .
- أن يحافظ على أموال اليتامى .
- ألا يأكل أموال الناس بالباطل .
- أن يبتعد عن الربا الذي هو جريمة مركبة، فبدلاً من التعاون والتكافل لمن هو في حاجة للمال، يزيد دَيْنُه أكثر وأكثر عن طريق الربا .
- أن يبتعد عن بعض القضايا الأخلاقية، كالهمز، واللمز، واحتقار الآخر، والسخرية .
- أن يحفظ اللسان ويدرك خطورة الكلمة وأثرها على المجتمع .
- أن يبتعد عن مجالي الإفساد في الأرض (المال والعِرض).

إلى غير ذلك مما ورد في المرائي التي وقعت في الإسراء والمعراج.

* * *

بيعتا العقبة وبدء إسلام الأنصار:

عرفنا أن رسول الله ﷺ كان يستقبل وفودَ العربِ من كل مكان ، والتي جاءت إلى مكة في موسم الحج ، يعرض عليهم الإسلام، حتى قابل جماعةً من يثرب استجابوا لدعوته، إلا أنهم لم يبايعوه، ثم كان بعد ذلك بيعة العقبة الأولى.

بيعة العقبة الأولى .. وثمرة الصبر وبذل الوسع في الدعوة:

في السنة الحادية عشرة من البعثة عاد وفد يثرب بعد أن قابلهم النبي ﷺ العام العاشر من البعثة ، وبايعوا رسولَ الله ﷺ، وكان عددُهم اثني عشر رجلًا من الأوس والخزرج ، وقد أرسل النبي ﷺ معهم "عبد الله بن أم مكتوم" و "مصعب بن عمير" ؛ يُعَلِّمَان مَنْ أسلم القرآنَ ، ويدعوان الناس إلى الإسلام .

فأقبل هذا الوفدُ ، ولقوا رسولَ الله بالعقبة – بمنى– فبايعوه، حيث قال لهم : "تَعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ، وَلاَ تَأْتُوا

بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلاَ تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، ....."[1].

وما أجمل الدقة في قوله : "وَلاَ تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ"، إنه ﷺ لم يقل: ولا نعصيه ويسكت، وإنما كان هذا القيد الدقيق بقوله: "في معروف"؛ ليؤكد على أن هذه البيعة هي بيعة فضيلة وخير، إنها بيعة على العمل بالمُثُل الأخلاقية العليا ونشرها؛ ولأجل ذلك عاد المسلمون في هذه البيعة إلى المدينة بأخلاق وقيم أخرى ، وبوجوه مملوءة بنور الإسلام وتعاليمه ، وبقلوب انشرحت بالرحمة ، فكانوا خير دعاة إلى الله ﷻ.

بيعة العقبة الثانية .. وتهيئة أسباب الهجرة إلى المدينة:

يعود مصعبُ بن عمير إلى مكة في العام التالي (الثاني عشر من البعثة) ومعه جمع وعدد كبير ممن أسلموا في المدينة، وكان عددهم بضعة وسبعين، بينهم امرأتان؛ حيث

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، بَابُ وُفُودِ الأَنْصَارِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ، وَبَيْعَةِ العَقَبَةِ (٥/٥٥) .

خرجوا مستخفين مع من جاء إلى مكة من قومهم المشركين حجاجًا؛ ليبايعوا رسول الله ﷺ .

وهذه البيعة الثانية كانت هي الأساس في هجرة النبي ﷺ إلى المدينة؛ ولما انتهى إلى سمع المشركين من أهل مكة خبر البيعة الثانية، وما قد تم فيها بين النبي ﷺ والمسلمين من أهل المدينة،كان لذلك أثرٌ كبيرٌ في تضييقهم الأمر على رسول الله ﷺ، والذي وصل إلى إجماع الرأي على قتله .

إذن لقد كانت بيعة العقبة الثانية المقدمة الأولى لهجرته ﷺ إلى المدينة.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن كلّا من البَيْعتين كانتا مبعثَ فخر، حملهما الأنصارُ في ذاكرتهم، بل حملهما لهم التاريخُ كلُّه؛ ولذلك عندما يتحدث الرجال متباهين بإنجازاتهم أمام الجميع، نرى الأنصارَ الذين بايعوا رسول الله في بيعتي العقبة الأولى والثانية، يجعلون في مقدمة إنجازاتهم وصدارتها ذكر بيعتهم له ﷺ، فهذا هو كعب بن مالك ﷺ يقول: (وَلَقَدْ

شَـهِدْتُ مَـعَ رَسُـولِ الله ﷺ لَيْلَـةَ الْعَقَبَـةِ حِـينَ تَوَاثَقْنَـا عَلَـى الإِسْـلاَمِ، وَمَـا أُحِـبُّ أَنَّ لِـي بِهَـا مَشْهَدَ بَـدْرٍ، وَإِنْ كَانَـتْ بَـدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا) [1].

* * *

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، بَابُ وُفُودِ الأَنْصَارِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺبِمَكَّةَ، وَبَيْعَةِ العَقَبَةِ(٥٤/٥)، ومسلم في كتاب التوبة ، بَابُ حَدِيثِ تَوْبَةِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَصَاحِبَيْهِ، (٢١٢٠/٤).

الباب الثاني
العهد المدني
(من الهجرة إلى لقاء ربه)

الفصل الأول : الهجرة ... وبناء الدولة
الفصل الثاني : الجوانب الإدارية في السيرة النبوية

الفصل الأول

الهجرة ... وبناء الدولة

نظراتٌ في الهجرة :

بينما كانت مكة تتآمر ضد رسول الله ﷺ ، كانت المدينة على العكس من ذلك، تهيئ له استقبالًا حافلًا، ففي إحدى الليالي، بينما كان المتآمرون يحيطون ببيت النبي ﷺ، خرج تحت أعين أعدائه، دون أن يروه، وانطلق في رحلة الهجرة ومعه صاحبه أبي بكر ﷺ، بعد أن قام بالإعداد الرصين معتمدًا على الأسباب المتاحة أمامه؛ حيث اختار عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) لينام في فراشه ، وعبد الله بن أبي بكر ليتسمّع الأخبار ، وأسماء بنت أبي بكر لتأتي لهما بالطعام ، وعامر بن فهيرة ليزيل آثار الأقدام ، وعبد الله بن أريقط ليكون دليلًا لهما في الطريق، وحين خرج اتخذ طريقًا مخالفًا للطريق المألوف عند الذهاب للمدينة؛ ليكون أبلغ في التورية من المترصدين والمتربصين به ﷺ.

وفي الهجرة نظراتٌ نذكر بعضها بشيء من الإيجاز والتركيز، وهي كالآتي:

عناية الله ﷻ ورعايته لرسوله الكريم :

ويظهر ذلك في مواطن كثيرة، منها: من يتدبر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾[1] يجد أن الكفار أرادوا أن يمكروا برسول الله ﷺ، واتفقوا في النهاية على قتله، لكن أمرَهم هذا كان مفضوحًا ومعروفًا لمن لا تخفى عليه خافية، وهو الله ﷻ، ومن ثَمَّ عرَّف اللهُ رسولَه بأمرهم وبمكرهم، وأبطل الله مكرَهم.

من يتدبر قول الله تعالى : ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[2]، هذه الآية تجعلنا نتساءل: وهل الكفار بالفعل أخرجوا رسول الله ﷺ أم أن الله ﷻ هو الذي أخرج رسوله، وما هو هدف الكفار من ذلك، وما هو الهدف الأسمى من هجرته؟.

حين خرج رسولُ الله ﷺ ظنّ هؤلاء الكفار أن الدعوة ستضيق ولن تنتشر، بينما نستطيع أن نقرر هنا أن الهدف

---

(١) سورة الأنفال: آية رقم (٣٠) .

(٢) سورة التوبة: آية رقم (٤٠) .

الأسمى من هجرة رسول الله ﷺ ، هو انتشار دعوته ﷺ في كل القبائل، فإخراج الكفار لرسول الله ﷺ كان هدفه فيما أرادوه التعنت أمام دعوته والتضييق عليه والقضاء على الدعوة بتمامها، لكن الله أراد من هذا الخروج أمرًا آخر وهو النصر والمؤازرة لرسوله ﷺ.

كذلك من الأمور المدهشة في حادث الهجرة أنهم قد وقفوا جميعًا أمام بيت النبي، يترصدون خروجه ﷺ ليضربوه ضربة رجلٍ واحد فيتفرق دمه في البلاد، والسؤال هنا : كيف خرج رسول الله من بين أيديهم، بأن يفتح باب بيته، ثم يميل إلى الأرض ليأخذ حفنة من التراب، ثم بعد ذلك ينثرها في وجوههم، كل هذا وهم ينظرون إلى رسول الله ويدَعونه يفعل كلَّ ذلك دون أن ينقضَّ أحدُهم عليه، ونحن نعلم أن من يترصد أحدًا ويقف له بالمرصاد فإنه يكون في أتم حالات الانتباه والاستعداد واليقظة والذكاء لينقض على رصدِه ! إلا أننا هنا نجد أنفسنا أمام إعجاز حسيٍّ لرسول الله ﷺ وهو أن يخرج من بين أيديهم جميعًا وينثر عليهم التراب، فتُغْشى أبصارُهم .

التخطيط الجيد والأخذ بالأسباب :

إن النبي ﷺ قد اتخذ طريقًا مخالفًا للطريق المعتاد الذي تذهب فيه قريش إلى المدينة وهو شمال مكة، واتخذ طريقًا عكسيًّا، وهو جنوب مكة، وكان في مشيته ﷺ يمشي بالتعريج، أي يمينًا تارة ويسارًا تارة أخرى، والعلة في ذلك ألا يراه أحد ويعلم بخروجه ومكانه، وفي أثناء سيره يمر النبي ﷺ بجبل عُسفان، وقيل: سمي بذلك لتعسف السيولُ فيه، ولك هنا أن تتخيل إذا كانت السيول التي لا يقف أمامها شيء تتعسف عند هذا الجبل، فكيف كان يمضي رسول الله ﷺ؟

وقد انتهى رسول الله ﷺ بعد مشقة الطريق إلى جبل ثور، وهو جبل عال وَعِر، ولنا هنا أن نتساءل عن ارتفاع هذا الجبل، وتكوينه الصلب، وما به من أحجار وغير ذلك، وكيف صعده رسول الله ﷺ، وهو حافي القدمين ؟ مع العلم أن النبي في حالة رصد، أي أن القوم يطلبونه، ومن ثم، فمِشية رسول الله ﷺ سريعة، وخلفه رصدٌ يريده، والمطلوب أن

يتخفى منهم، وأن يُسرع في صعود هذا الجبل، هذا بالإضافة إلى كثرة الرمال التي تنقلها الرياحُ نقلاً يتعذر معه بقاء الطريق ممهدًا أصلًا.

قصّاص الأثر :

لقد تتبع كُرْزُ بن عَلْقَمَة (أحد قُصَّاص الأثر) أثر أقدام رسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر، حتى انتهت آثار الأقدام عند الغار، وهنا قال : هذه أثر أقدام محمد، وهو أشبه بالموجود في الكعبة – يقصد أنه أشبه بأثر قدم إبراهيم – عليه السلام –، ثم قال : وهذه أثر قدم أبي بكر أو قدم ابنه، ثم وضّح في ثقة ويقين وقال : وما تجوّزا هذا المكان إلا أن يكونا قد صعدا إلى السماء أو دخلا في جوف الأرض.

إنه بالرغم من هذا التأكيد الذي أكده لهم كُرز، إلا أنهم لم يدخلوا الغار، ولم يخطر ببالهم أن ينظروا فيه، مع أن آثار الأقدام انتهت عنده، ولم يفكِّر أحدُهم في أن يَقْلِبَ الحجرَ أو يفتش عن محمد ﷺ وصاحبه، مع أن هذا هو أول ما كان يجب أن يتبادر إلى الذهن، فما دامت آثار الأقدام قد انتهت عند مدخل الغار كان يجب أن يفتشوا داخله،

لكن أحدًا لم يلتفت إلى ذلك ، وهذا دليل على أنه قد عميت قلوبهم قبل عقولهم.

دليل الرسول ﷺ في الهجرة :

لقد كان دليل رسول الله في هجرته عبد الله بن أريقط أمينًا على رسول الله ﷺ، على الرغم من بقائه على الكفر، وكيف لم يغره الرصد والجائزة العظيمة التي رصدتها قريش لمن يخبر عن رسول الله ﷺ؟ ألا يلفتنا هذا إلى حسن اختيار وفراسة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الله ﷻ بقدرته جعل عبد الله بن أريقط أمينًا على رسول الله، وسخّره في خدمة الإيمان ونبي الإسلام.

أول كلمة سُمعت منه ﷺ بالمدينة تدعو للسلام :

إن أولَ كلمةٍ سُمِعت منه ﷺ كانت الدعوة الرصينة للسلام، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ سَلَامٍ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ الله عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ

قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلامٍ»[1].

والسلام هنا ليس وقفًا على أحد أنواعه، بل هو سلام شامل، مع النفس، ومع الآخر، ومع المجتمع، ومع كل أجناس الكون، من خلال قيم رسّخها النبي ﷺ في مستهل إقامة الدولة بمؤسساتها؛ ليصنع رسول الله ﷺ بذلك وعيًّا أولاً بقيمة السلام كسبيل رئيس في استقرار الوطن، ومن ثمّ ترجمة هذا الوعي ثانيًا وتحويله لواقع عمليّ، يؤدي إلى أن يكون الوطن بالنسبة لكل فرد من أفراده حياة، وهُوية، وانتماء، وأمانة، وليس مجرد نقطة جغرافية يعيش الإنسان عليها ، وقد كان هذا هو شغل النبي ﷺ بالمدينة ابتداء ، أن يقر فيها السلام ، ويخلصها من خصوماتها الداخلية ، ويصلح ما بين الأوس والخزرج ؛ لتنظيم دفاع فعّال ضد الأعداء في الخارج .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في أبواب إقامة الصلوات والسنة فيها ، بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ أَيْقَظَ أَهْلَهُ مِنْ اللَّيْلِ، (٣٦٠/٢)، والبيهقي في شعب الإيمان ، باب حقوق الأولاد والأهلين، (١٨٢/١١).

هذه الفلسفة هي الرؤية التي يجب أن تقوم كلُّ دولة بصياغتها برؤية عصرية شاملة ومتكاملة؛ فيتحقق من خلالها بناءٌ في شتى المجالات المؤسسية (الثقافية، والإعلامية، والتعليمية، والتربوية، والاقتصادية، والاجتماعية ...وهكذا).

الهجرة وبناء المؤسسات:

لقد كانت المدينة المنورة تُمَثِّلُ دولةً في طور التكوين والإنشاء، يلزمها بناء مؤسسات وتحديد سلطات وصلاحيات، ورسم سياسات وخطط، ومواجهة صعوبات وتحديات خارجية وداخلية، ولقد مثَّل التعايشُ في المجتمع المدني أهمَّ القضايا بسبب الحالة الاجتماعية التي اقتضت أن يمتزج خليطٌ متنوع ومختلف من البشر في بيئة واحدة، ولك أن تتخيل صعوبة الجمع والتعايش في ظل هذا التنوع والتمايز الكبير، والذي يمثله الآتي:

١-أصحاب الأرض الأصليون، وهم أهل المدينة "الأنصار"، وكانوا منقسمين إلى أوس وخزرج، وكان الصراع بين القبيلتين شديدًا على من تكون له السيادة على المدينة.

٢- وافــدون يشــاركون أصــحاب الأرض في الســكن والتجارة والأسواق وغير ذلك وهم "المهاجرون"، الذين لم يكونوا عصبة واحدة، ولكنهم أتوا من بقاع شتى، وينتمون لقبائل وبطون مختلفة، ربما كان بينها تاريخ من الصراع والتناحر والتنافس.

٣- اليهود، وكانوا يعيشون في حصون يستقلون بها، ومعهم السلاح والعتاد، وكانوا فِرَقًا، وهي: قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، ويهود خيبر .

٤- هذا غير التنوع في الأصول الوافدة على المدينة، فكان فيها العرب والأحباش، والأبيض والأسود، والأحرار والعبيد، والرومي والفارسي[1].

بناء المسجد من أوائل الأعمال والمؤسسات :

لقد بدأ رسول الله ﷺ بتكوين فرق العمل لبناء المسجد، والذي سوف يكون هو المؤسسة الكبرى، الذي يجمع المسلمين بفئاتهم المختلفة؛ مما يترتب على ذلك أمور كثيرة، منها :

---

(١) التعايش مع الآخر في ضوء السيرة النبوية ، د. علي جمعة، ص (٥٣-٥٤).

- التآلف والتوحد والمشاركة .
- أن يكون المسجد مقرًّا للقضاء بينهم في نزاعاتهم .
- أن يكون المسجد مدرسة علمية رصينة يتعلم فيها المسلمون كل التعاليم الإيمانية من قيم وأخلاق ونظام .

هذا بالإضافة إلى كونه مكان تأدية الشعائر والاجتماع بالنبي ﷺ، فكان المسجد إذن، وبهذا التصور، هو مجموعة من المؤسسات المختلفة، وكان مشروعًا مصيريًّا جمع كلمة المسلمين في المدينة، ووحّد صفهم، وصرفهم عن كل اختلاف[1]؛ حيث كان دارًا للفتوى، ودارًا للقضاء والفصل بين المتخاصمين، ودارًا للتربية، ودارًا للتعلم، ودارًا للعبادة، ودارًا للتشاور، وغيرها كثير، كما كان امتدادًا للمدرسة العلمية الأولى بمكة.

وثيقة المدينة وفقه المواطنة:

لقد أسس النبي ﷺ الدولة الإسلامية من أول يوم بعد الهجرة المشرّفة إلى المدينة على فكرة "الوطن" بأدق

(١) السابق نفسه ، ص (٥٥) بتصرف.

معاني ودلالات هذه الكلمة.

ووجدنا لأول مرة في التاريخ أمة واحدة متحدة ، تضم بين جنباتها العربي، والفارسي، والرومي، والوثني، واليهودي، والمسيحي، والمجوسي الصابئي، وشعارهم جميعًا تحت راية الإسلام : الدين لله، والوطن للجميع [1] .

لقد رسّخ رسول الله ﷺ (المواطنة) في أسمى معانيها حينما هاجر إلى المدينة، ووضع أولَ دستور للدولة المدنية في العالم؛ ليكون بذلك سابقًا كل النظم العالمية، حدّد من خلاله الملامح الرئيسة لدولة الإسلام حيث إن هذه الوثيقة تعبر عن مجموعة من القواعد الأساسية التي تبين شكل الدولة ونظام الحكم فيها .

من ركائز ومنطلقات الوثيقة[2]:

- التعايش السلمي بين الجميع ، ووجوب الدفاع عن

---

(١) زاد المسلم للدين والحياة، د/ محمد عبد الله دراز، ط٣، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٤م، دار القلم للنشر والتوزيع – القاهرة، ص (١١٧–١١٨) بتصرف.

(٢) انظر: التعايش مع الآخر، د. علي جمعة، ص (٦٤–٦٦).

الوطن، والنصرة تكون في الحق والعدل، لا في الظلم والإثم .

- توفير الأمن للجميع، فالإنسان آمن في حرية اختياره، فمن رضي بالوثيقة وعقدها فهو آمن، ومن رفضها واعترض عليها فهو آمن أيضًا، لا يضطهد، ولا يعتدى عليه، ولا يُنقص حقًّا وجب له .

- الإنسان حرٌّ في انتقاله من المدينة ، وحرٌّ في إقامته فيها ، ينعم بما ينعم به أهلها من حقوق ، ويتحمل مثل ما يتحملون من المسئوليات والواجبات ، له ما لهم وعليه ما عليهم .

- إقرار مبدأ المسئولية الفردية ، فكل إنسان يتحمل مسئولية جرمه وما كسبه ، يُسأل عنه ويُؤاخذ به ، ولا يحل مؤاخذة الجماعة بجريرة الفرد . وقد ظهر ذلك في نص الوثيقة من خلال بنود عديدة ، منها :

- أنه لا يكسبُ كَاسِبٌ إلاَّ عَلَى نَفْسِهِ .
- وَإِنَّ الله عَلَى أَصْدَقِ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبَرِّهِ .

• وَإِنَّهُ لَمْ يَأْثَمْ امْرُؤٌ بِحَلِيفِهِ .

• وَإِنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ.

- كما نصّت الوثيقة على قاعدة المسئولية الجماعية بمعنى أن الدولة كلها مسئولة عن محاصرة الظالم أو الجاني ومحاكمته ، والحرص على نواله العقاب على ما اقترف من الجرم .

- وحلّت الصحيفة تشابك العلاقات الإنسانية، فهناك علاقة القرابة والدم، وهناك علاقة الدين، وهناك علاقة الجوار، وهناك علاقة المصالح المشتركة، فإن عاشت هذه العلاقات جميعها في وئام وتوافق استطاع الإنسان أن يحقق التعايش والسلام الاجتماعي .

- الكرامة الإنسانية حق لكل إنسان؛ حيث قالت الوثيقة: (الجار كالنفس غير مُضار ولا آثم)، فمن لم يدخل في المعاهدة أو الوثيقة فهو جار لأهلها لا يصيبه ضرر ولا إثم .

- سَنَّت الوثيقة سنة (التكافل) بين أفراد الأمة في مختلف الميادين، سواء كانت تلك الميادين مادية أو دنيوية، فالأمة متكافلة ومتضامنة في "الحق"، فجاء في

نص الوثيقة: (وَإِنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ)، وهي متكافلة ومتضامنة في المساواة القانونية (وَإِنَّ ذِمَّةَ الله وَاحِدَةٌ، يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ)، الأمر الذي يعني رفض "الطبقية" الجاهلية، عرقية كانت أو اجتماعية.

وحيث إننا قمنا بتوصيفٍ سابقٍ ودقيقٍ للتنوع البشري في العقائد والعادات والأجناس لسكان المدينة، فقد أسس النبي بهذه الوثيقة مجتمعًا واحدًا جعل من خلالها كلَّ سكان المدينة شركاء في نظام سياسي واحد، يضمن لهم حقوقًا متساوية، ويستظلون جميعهم بحماية الدولة، وذلك في مقابلة أداء واجباتهم من حيث الدفاع عن وطنهم.

لذا فقد وقّع على هذه الوثيقة سكان المدينة كلهم، ورضوا بها دستورًا حاكمًا بينهم؛ لما وجدوه بها من عدل ومساواة[1].

* * *

(١) التعايش مع الآخر، ص (٦٠).

السيرة النبوية وحل المشكلات

الرسول ﷺ وحل المشكلات :

لقد أظهر النبي ﷺ عبقرية ذات رحابة لا مثيل لها، مستهديًّا فيها بالوحي المشرف .

ولقد كانت مهمة النبي ﷺ شاقة وصعبة ، ولا سيما في ذلك المجتمع البدوي والبدائي الغارق في الضلالة ، فتناول رسولُ الله ﷺ مشاكلَ هذا المجتمع مشكلة مشكلة ومعضلة معضلة، وبدأ يفك عقدَها ويحل مصاعبَها ، فأوصل المجتمعَ إلى شاطيء الاطمئنان وإلى ساحل السلامة .

وما كان ذلك إلا لأن الحلول التي وضعها رسولُ الله ﷺ، لم تكن تهتم فقط بجانبٍ دون جانب ، إنما كانت تشمل كلَّ جوانب الحياة المختلفة (الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والوطنية، والعسكرية، والتعليمية، ...إلخ) .

المشكلة الاقتصادية :

إن المتأمل لحياة رسول الله ﷺ يجد أنه بيّن المقومات الأساسية للاقتصاد من الزراعة والتجارة والصناعة، والتي من

شأنها أن تضمن للأمةِ حياةً طيبة، لا تضيق فيها الأرزاقُ ولا تُهدر فيها الأموالُ، فقد علّمنا رسول الله ﷺ- وقبل أربعة عشر قرنًا- ما يجب علينا فعله ليتحقق لنا التوازن الاقتصادي، وقام بتوجيهنا نحو التجارة والزراعة والصناعة وسبل العيش؛ للوصول إلى الإنتاج الرصين المشمول بقيمة الإتقان وتمايز الصناعات، بما يحقق التنمية الاقتصادية وبالتالي الاستقلال الاقتصادي، ومن يقرأ بعمق سيرته ﷺ وتوجيهاته النبوية، يظهر له ذلك من خلال هذه الحلول، والتي منها:

- الترشيد في الإنفاق والنهي عن الترف في المال وإهداره فيما لا ينفع.
- الاعتماد على الذات، من خلال استخدام الجوارح والمواهب والقدرات والإمكانات التي وهبها الله ﷻ للإنسان وتوجيهها لطلب الرزق.
- النهي عن البطالة والتأكيد على توجيه الطاقات نحو العمل.
- النهى عن التسول، فقد جاءت التعليمات النبوية تدعو كلَّ إنسان أن يكون عزيزَ النفس، يُحَقِّقُ كَرامَتَها ويعفّها عن السؤال بالعمل.

- تكريم العمل والعمال .

فرسول الله ﷺ من خلال كل هذه التوجيهات وغيرها يدعو الأمة إلى التنمية، والتقدم، والنمو، وبناء كيان اقتصادي لها تواجه به كلَّ الصعاب، وتلبّي من خلاله كل حاجياتها، لقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (١) .

تأسيس سوق المدينة :

بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة رأى رسول الله ﷺ اليهودَ هم المسيطرون على الحياة التجارية فيها، فأصدر أمره ﷺ بتأسيس سوق للمسلمين؛ لكي يتعاطى المسلمون عمليات البيع والشراء، ومن أجل أن يدخل المسلمون إلى عالم التجارة ويزدادوا قدرة وقوة، ويؤسسوا محالّهم التجارية الخاصة.

ولقد وضع رسول الله ﷺ ضوابطَ وقيمًا أخلاقية ينبغي على التجار أن يترسموها في تجاراتهم من حيث البيع والشراء، وأساس هذه الضوابط والقيم، هو العدل وترك الظلم،

---

(١) سورة الأعراف: آية رقم (١٠).

ولقد قامت هذه الضوابط على حماية المستهلِك من ناحية، وعلى الحفاظ على الأمن الغذائي من ناحية أخرى ، وبشيء من الإيجاز نلقي الضوء على توجيه النبي ﷺ لكل منهما:

أولاً : حماية المستهلك :

وتأتي على مسارين:

الأول : يتعلق بحماية المستهلك في نفسه، وهذا يتحقق بالترشيد في حاجياته ومطلوباته، وأن يأتي بما يكفل ويضمن له حياة مستقرة وهادئة دون إسراف أو ما هو فوق الحاجة، وقد جاءت النصوص النبوية المشرفة تترى، تؤكد على قيم الترشيد وعدم الإسراف .

وكذلك حماية المستهلك في نفسه تكون بزيادة الإنتاج، وإلا لن يجد المستهلك ما يكفي به حاجياته، وحينئذ مع فقد المنتج سوف يكون هناك استيراد؛ مما يعود عليه بدفع المبالغ الباهظة للحصول على حاجياته ، فكانت الدعوة المستمرة من رسول الله ﷺ إلى العمل والكسب وزيادة الموارد لتكفي حاجيات المستهلك.

الثاني : يتعلق بحماية المستهلك مما يقابله ، وهو المُنتِج، ومن الضوابط التي وضعها رسول الله ﷺ لذلك :

١- جودة الإنتاج ، وهذا يتطلب الإتقان حتى لا تكون هناك شكوى من المستهلِك ، فحين يُتقن كل مُنتج في صنعته ويجوّدها لا تجد الشكوى ، بل ستتمايز الصناعات ، ويكون ذلك سبيلاً رئيسًا للتقدم الاقتصادي .

٢- إنجاز الأعمال لكفاية حاجة المستهلكين ، والقضاء على البطالة المقنعة التي تُعَطِّلُ الأعمالَ وتُؤخرها .

٣- الصدق والأمانة وعدم الغش في عرض أو بيع المنتج للمستهلك ؛ ولأجل ذلك كان رسول الله ﷺ يتابع بنفسه حركة السوق ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا ، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلاً فَقَالَ: "مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟" قَالَ : أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: "أَفَلا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي"[1] ، فنهى النبي ﷺ عن كتم العيب.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»، (٩٩/١) .

٤- النهي عن التطفيف ، فالوزن ينبغي أن يكون دقيقًا، بعيدًا عن التلاعب وبخس الناس حقهم ، وهذا ما وجه إليه النبي ﷺ في تربيته للصحابة - رضي الله عنهم- من حيث يقظة الضمير، والدقة في إعطاء الحقوق.

ثانيًا: الأمن الغذائي :

لا يتحقق الأمن الغذائي إلا بمجموعة من المراحل لا بد منها متعاونة ، وهي (إنتاج وتصنيع وتخزين وتوزيع وإعداد)؛ وذلك حتى يكون الغذاء آمنًا ، موثوقًا به ،صحيًّا ، ملائمًا للمستهلِك،الأمر الذي يحتاج إلى تربية الضمير على قيمة الإتقان .

وحتى يتحقق الأمن الغذائي فقد قاوم النبي ﷺ الاحتكار والاستغلال، حيث إن المحتكر قد بنى كسبه الوفير على شقاء طبقة عريضة من الناس، وهى جريمة لا تقل عن سائر الجرائم كالسرقة وغيرها؛ لأنه أصاب دخل الفرد فقلّله عندما احتكر السلع بقصد رفع أسعارها ظلمًا وعدوانًا .

ومن أسباب تحقيق الأمن الغذائي أيضًا محاربة الغش والشَّره، فالغش بلا شك هو خلق قبيح، بل هو جريمة في

حق المجتمع كله؛ لأننا بنظرة عميقة في باب الغش بصوره المختلفة والمتعددة، سنجد أنه قد اجتمعت فيه مجموعة من الأخلاق المذمومة التي نهى عنها الإسلام وحذّر منها، مثل: (الخداع، والكذب، والتحايل، والتدليس، والظلم للنفس وللغير، والخيانة، والتزوير، وضياع الحقوق، والشره، والطمع، والمكر، والكسب غير المشروع، والاعتداء على مال الغير، والكفر بالنعمة، وأكل المال بغير حق).

النظام الاجتماعي للدولة :

إن النظام الاجتماعيّ للدولة أسسه رسول الله؛ ليهيئ مجتمعًا فاضلاً، قِوامه الدين والأخلاق والقيم، حيث وضع أسسًا ومبادئ وقواعد تربوية للإنسانية لها صفة الشمول والعمق، وتحتضن الإنسانية كلها في كل عصر من العصور وفي كل وقت .

ويكفي أن نشير هنا إلى أن تلك الضوابط والأسس لإقامة نظام اجتماعي رصين في الدولة الإسلامية، إنما هي مستفادة من مقاصد النبوة المشرفة، والتي تتلخص في قول

الله تعـــــالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1] وهـذه الرحمـة ينبغـي أن نحوّلهـا إلى ترجمـة واقعيـة في حياتنا، وأن نجسدها في تعايشنا، وذلك بأن نتمثل أخلاق رسول الله ﷺ في علاقة كل منا مع الآخر (مطلق آخر).

سياسة الدولة في التعامل مع الآخر:

لقد أسس رسول الله ﷺ في إطار النظام الاجتماعي سياسة الدولة في التعامل مع الآخر داخل الدولة أو خارجها على عدد من القيم والقواعد الإنسانية العامّة، والتي من شأنها أن تعمل على احترام الهُوية الإنسانية ، حيث إن منهج النبوة دائمًا يتشوف إلى الحرية، ومما يؤكد ذلك أن النبي ﷺ لما أرسل ﷺ رسولَه حاطب بن أبي بلتعة إلى مصر مثلًا ، أرسله إلى (المقوقس) عظيم مصر في حين أن مصر كانت في ذلك الوقت مستعمرة للدولة الرومانية ، وملكها هو هِرَقْل ، في إشارة دقيقة تدل على أن النبي ﷺ لا يعترف بالمستعمر، وإنما يعترف بصاحب البلد الأصلي، ويؤيد حرية الدول واستقلالها.

---

(١) سورة الأنبياء: آية رقم (١٠٧).

ونشير هنا إلى سياسة الدولة في التعامل مع الآخر خارج المدينة، وذلك من خلال النقاط الآتية :

أولاً : إيثار الصلح :

خرج النبي ﷺ ومعه أصحابه -رضي الله عنهم- يقصدون مكة وهم مُحْرِمون، يسوقون هَدْيَهم إلى البيت الحرام، لا يحملون سلاحًا، ولايرومون حربًا، بل خرجوا يبتغون العمرة، فإذا بقريش تتصدى له وتمنعه من دخول مكة، وعندئذ كان صلح الحديبية [1] ، ومثل ذلك كان مع خيبر[2]، وفي فتح مكة [3].

من مبادئ العلاقات الدولية في حال السّلم :

وبناء على هذا التعامل، فقد ظهرت بعض المبادئ للعلاقات الدولية في حال السلم، منها [4] :

---

(١) انظر بنود هذه المعاهدة: السيرة، لابن هشام، (٣٠٨/٢) وما بعدها، والروض الأنف، (٥٣/٧) وما بعدها، وعيون الأثر، (١٥٤/٢) وما بعدها.

(٢) التعايش مع الآخر، د. علي جمعة، ص (١٠٩-١١١) .

(٣) السابق نفسه، ص (١١١-١١٢).

(٤) انظر هذه المبادئ في: التعايش مع الآخر، د. علي جمعة، ص (١١٦، ١١٧).

الانفتاح : ونقصد به التواصل، والدعوة إلى التعاون والمشاركة في عمـــارة الأرض، وهـــذا المبـدأ ذكـره الله سبحـــانه وتعـــالى في قولـه : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾[1] .

مراعاة الجوار : فالعلاقات الدولية كالعلاقات الإنسانية يجب مراعاة الجوار فيها، فإن للجوار حقوقًا، وكل جسور تبنى للحوار والتعارف تبدأ من الجار .

دعم السلام : إن الأصل في تعامل المسلمين مع غيرهم هو السلم، ولذلك حرص النبي ﷺ على دوام السلم والالتزام بالعهود فيه، فقد بدر من قريش عدةُ أمور تدفع لنبذ السلم، ولكنه ﷺ تمسك به، وما حدث في صلح الحديبية خير نموذج على ذلك، قال تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى

(١) سورة المائدة، آية رقم (٢).

ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [1].

ثانيًا : سياسته ﷺ في التعايش مع أهل الكتاب خارج المدينة :

يلاحظ أن رسول الله ﷺ قد عقد الكثير من المعاهدات والاتفاقيات مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يعيشون خارج المدينة، ومن هذه العهود والاتفاقيات، ما قام به مع نصارى نجران .

وكانت أيضًا هناك العلاقات السلمية مع الحبشة، والتي ظلت قائمة قرونًا طويلة دون معاهدة مكتوبة؛ حيث كان الموقف العام من المسلمين للحبشة هو مقام الشكر لما قاموا به وقدموه للمسلمين في بداية الدعوة من حفظهم من أذى قريش والعمل على أمنهم، فاعتبر المسلمون الحبشة مصونة، فلم يتعرضوا لها، إذ هي لم تقف أمام دعوته ﷺ ولم تعمل على اضطهاد المسلمين، ولم تُغِرْ على دولته أو تناصر أعداءه [2].

---

(١) سورة الممتحنة، الآيات (٨، ٩) .

(٢) التعايش مع الآخر، ص (١١٩) بتصرف .

مشكلة الأمن الاجتماعي:

لقد أدرك رسول الله ﷺ أن الدولة إذا تحوّلت إلى طوائف، فإن ذلك دلالة على هدم وحدتها، فيسهل بعد ذلك اختراقها من أي جهة أخرى، وكذلك تضعف وتخور قوة الدولة ومقاومتها، وهذا من شأنه أن يقوي التدخل الخارجي فيتمكن من النفوذ والاختراق لأمن الدولة .

والنبي ﷺ عندما وجد في المدينة مزيجًا إنسانيًّا متنوعًا من حيث الاعتقاد، والانتماء، والتعايش، وغير ذلك، وفَّقَ بين هذه الانتماءات، وبين هذه الاتجاهات، بين المؤمنين بدين، وبين الوثنيين، وأكَّد رسول الله ﷺ على ذلك وبيّن أن أهل المدينة جميعًا أمة واحدة، سلمهم واحد، وحربهم واحدة .

بل إننا نجد أن رسول الله ﷺ قد أصَّل لهُويَّة الدولة الإسلامية التي تتجلى فيها المواطنة الكاملة في الحقوق والواجبات، وهي الهُويَّة التي تكفل وسائل تحقيق العدل والمساواة والحرية، وتضمن حماية الأنفس والأعراض والأموال .

المساواة وعدم التمييز :

لقد وضع رسول الله ﷺ حلًّا لهذه المشكلة التى يكون فيها التمايز الطبقي أو العنصري أو العرقي أو اللوني، فالناس حسب المبادئ التي جاء بها رسول الله ﷺ سواسية كأسنان المشط.

إن رسول الله ﷺ نبّه الأمة إلى قبول الآخر بتأسيسٍ علميٍّ وواقعيٍّ؛ وذلك عندما رفض كل أشكال العنصرية تجاه الآخر، كما أنه رفض تصنيف الآخر بسبب اللون أو الجنس أو العرق أو الاعتقاد أو لغيره من المسببات "غير الاختيارية"، وبالتالي لا يمكن أن ينشأ في ظل التصور الإسلامي موقف يرفض الآخر، يؤدي إلى تسويغ العنف ضده .

وانسجامًا مع أحاديث كثيرة للرسول ﷺ التي شرحت هذا الموضوع، نرى سيدنا عمرَ بن الخطاب ﷺ، يقول عن بلال ﷺ : "أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا "يعني : بلالاً[1].

التعليم ومشكلة الأمية :

لقد بُعث النبي ﷺ في مجتمع أميٍّ ، وكانت من أهم

([1]) أخرجه البخاري فى المناقب ، باب مناقب بلال، (١٣٧١/٣) .

المشاكل التي واجهها مشكلة الأمية، ولأن رسول الله ﷺ يدرك قيمة العلم ، وأن سبيل التقدم والنهوض لأي أمة لا يكون إلا به ، حثّ رسول الله ﷺ على العلم ودعا إليه، بل وصل الأمر إلى تعلّم اللغات .

لقد كان رسول الله ﷺ، يوجه دائمًا إلى المحافظة على العلم والثقافة، فلم يهمل رسول الله ﷺ مواصلة التعبئة الثقافية والعلمية حتى في أصعب الظروف؛ حيث كان يكرّس من لم يذهبوا إلى جبهات القتال للمدارسة والعلم، ولذلك وجدنا عددًا قليلًا ممن يقرأون ويكتبون في بداية الدعوة، كانوا يعدون على أصابع اليد، بينما بعد مرور عشرين عامًا من بدء الدعوة لم يبق هناك فرد واحد لا يعرف القراءة والكتابة .

وفي يوم بدر، كان هذا التفكير الرصين لرسول الله ﷺ، والذي أراد من خلاله أن يجلب وسائل التثقيف والتعبئة العلمية والمعرفية بشتى الطرق، فكان هناك بعض الأسرى يوم بدر، لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن

يُعَلّموا أبناء الأنصار الكتابة، حتى إن الواحد منهم كان يعلم عشرة من المسلمين .

تعلّم الصناعات والمِهن والحِرف المختلفة:

لقد ساعد هذا المجتمع الذي أقامه رسول الله ﷺ منفتحًا على العلم والفكر، حسب طاقة العصر حينها، في تعليم أصحابه الكثير من المِهن والصناعات والحِرف، والتي كانت عاملاً في عمارة البلاد، حيث قام النبي ﷺ باستثمار الموارد البشرية وإمكاناتهم، وتوظيفها كل بحسب ما يجيد ويُتقن، ما أدى إلى ما يصلح به قوام حياتهم الحالية والمستقبلية، فيعود عليهم بالخير والأمن والرخاء .

ولا شك أنه ينبغي مراعاة لغة العصر، فلا بد من فكر جديد ومعاصر يواكب التطورات الحياتية وتكنولوجيا المعلومات إذا أردنا أن ننشئ أجيالا كسواعد حقيقية لبناء الدولة، ولا بد من معالجة البناء الفكري في شتى المجالات (اقتصاديًّا- وتربويًّا – واجتماعيًّا – وعلميًّا، ... وهكذا)، الأمر الذي يتطلب جهدًا جهيدًا لإيصال هذه المعاني والمعارف

لهم؛ من أجل إعداد أجيال قادرة على مسيرة البناء والتقدم، خدمة لوطنها ولأمتها .

هيئة الدولة للتخطيط :

يعد التخطيط من أهم المسائل التي تتعلق بمستقبل الأمم والدول، حيث إنه يبحث عن التنمية والنمو والتقدم والنهضة، ولتحقيق هذا الأساس فقد تم تأسيس هيئة خاصة بالتخطيط في كل دولة كحل مستقبلي لمشكلات قائمة أو كوقاية من مشكلات متوقعة، وبالنظر في حياة رسول الله ﷺ سنجد هذا التخطيط، بل ما كانت فكرة تُقترح إلا وكان التطبيق لها عن طريقها، وعلى هذا النهج سار الصحابة بعد رسول الله .

فالنبي ﷺ حين أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وهي هجرة إلى دار أمن، كأنه استعرض صفحة الكون، فوجد أن جزيرة العرب كلها تدين لقريش؛ نظرًا لعلاقات بينها خاصة التجارة، فخرج رسول الله ﷺ بنظرته العميقة خارج الجزيرة العربية، فوجد قوتين : الفرس، والروم، الفرس مستبعدة؛ لأنهم عبّاد نار، أما الروم فهم أهل كتاب، لكن من الممكن

أن يكون لهم كتاب ولا يعملون بما فيه، فوصل بعد تخطيط عميق وحسن استكشاف إلى الحبشة وأمر أصحابه بالهجرة إليها؛ لأن لها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهذا تخطيط يحفظ به أمن وأمان أصحابه .

وفي المدينة أسس النبي ﷺ تخطيطًا يتناسب مع الظروف الجديدة في المدينة، من حيث التخطيط لإقامة دولة ذات مقومات راسخة، وذلك بالبحث عن عمل للمهاجرين للقضاء على البطالة ، وإنشاء الأسواق للتنمية الاقتصادية للدولة، والحث على الزراعة والتجارة كمقومات رئيسة للاقتصاد .

حل المشكلات عن طريق الشورى :

إننا عندما نتأمل معنى هذا الوصف الدقيق الذي وصفت به السيدة عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ، فقالت : (فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ) [1] سندرك وبكل يقين أن سياسته ﷺ للدولة وما يتعلق بها ، وسياسته لبيته ، وسلوكه بين أصحابه ، ما

(١) أخرجه مسلم في باب صلاة المسافرين وقصرها، بَاب جَامِعِ صَلَاةِ اللَّيْلِ، وَمَنْ نَامَ عَنْهُ أَوْ مَرِضَ، (٥١٢/١).

هو إلا التزام بالقرآن الكريم .

وقد كان الرسول ﷺ يعلّم الأمة من خلال أحاديثه أن الشورى تكليف وليست مجرد أمر يجوز الالتزام به أو لا؛ ولأجل ذلك استخدم ﷺ حرف الـ"لام"، الذي يفيد الأمر، فقال : "إِذَا اسْتَشَارَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ ، فَلْيُشِرْ عَلَيْهِ"[1]، وجعل رسول الله ﷺ هذه المشوررة مسئولية تطلب ممن كان من أهلها؛ لأن "الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ"[2].

والشورى تكون في أمور الناس التي لم يرد فيها نص قطعي الثبوت والدلالة، والرسول ﷺ كان فيما يتعلق بشئون الدولة هو حاكم ومجتهد، وكان في كل أمر يتعلق بالدولة يكون فيه المراجعة والشورى، فعندما كان ﷺ يدلي برأيه كان الصحابة يسألونه : يا رسول الله، أهو الوحي، أم الرأي والمشورة ؟ بمعنى: أهو دين ووحي فيكون علينا السمع

---

(١) أخرجه ابن ماجه في أبواب الأدب ، باب المستشار مؤتمن، (٦٨٢/٤)، وعبد الرزاق في مصنفه، (٢٠٠/٨) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في أبواب الأدب ، باب المستشار مؤتمن، (٤/ ٦٨١)، وأحمد في مسنده، (٤٣/٣٧).

والطاعة، أم هذا من أمر الدنيا والسياسة فيكون فيه الرأي والمشورة ؟ .

ولأجل ذلك وجدنا السيرة النبوية المشرفة تبرز لنا هذا الالتزام من رسول الله ﷺ بالشورى والتشاور في سياسة الدولة، وفي كل شئونه؛ حتى إن أبا هريرة (رضي الله عنه) قال : (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ مَشُورَةً لأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ) [1].

المشكلات الصحية والطب الوقائي :

إن عناية الرسولِ ﷺ بالصحة لم تكن أقل من عنايته بالعلم، وإذا كانت أصولُ الطب التي وصل إليها الإنسان بتجاربه تدور حول حفظ القوة وعدم مضاعفة المرض، والحماية من المؤذيات وكلِّ ما يصيب الإنسان بالألم، فإنا نجد هذه الإشارات الدقيقة والعميقة للنبي ﷺ في كثير من الجزئيات والأمثلة التي تمثل هذه الأصولَ الطبية [2].

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب الجهاد، بَابُ مَا جَاءَ فِي المَشُورَةِ، (٢١٣/٤)، وأحمد في مسنده، (٢٤٤/٣١).

(٢) منهج القرآن في بناء المجتمع، الشيخ محمود شلتوت، هدية مجلة الأزهر رمضان ١٤٣٦هـ، ص (٦١) بتصرف.

ومن هنا وجدنا من فقه النبوة هذا الإجراء الوقائي الذي يهتم بحفظِ صحة الإنسان وحمايته ووقايته من الوقوع في المرض؛ وذلك لأن الأهم من علاج المرض نفسه هو الوقاية منه، وكأنه ﷺ يعطينا درسًا عظيمًا في فقه الأولويات، الذي يقضي بتقديم الأهم على المهم، والمهم على غير المهم، وأن يُقَدِّمَ ما مِنْ حقه التقديم، وأن يؤخر ما من حقه أن يؤخر .

وقد جاءت أحاديث ونماذج كثيرة مروية عن رسول الله ﷺ في علم الصحة، ولا سيما فيما يتعلق بـ "الطب الوقائي" الذي يشكل جزءًا مهما من علم الطب، لذا فقد اهتم رسول الله ﷺ به وجعل أكثر وصاياه الطبية مركّزة حول الطب الوقائي .

فكان الصحابة (رضي الله عنهم) يعيشون بحِرَفيَّةٍ عالية، يحفظون أنفسهم وحياتهم وفق أعلى معايير الوقاية التي جاءت على لسان رسول الله ﷺ؛ بما يضمن لهم الحياة النظيفة الطاهرة، والنماذج في ذلك كثيرة، مثل توجيهاته

ﷺ فيما يتعلق بمرض الجذام وما يعرف بالحجر الصحي، وتوجيهاته ﷺ فيما يتعلق بولوغ الكلب، وما يعرف بالتعقيم ضد الجراثيم، وكذلك في حثّه على التوازن في الأكل والطب الوقائي، والنهي عن قضاء الحاجة من بول أو براز في الماء الذي يستعمله الناس في وضوئهم واغتسالهم وسائر شئونهم، وفي طريقهم الذي عليه يمشون، وفي ظلهم الذي به يستظلون، وموارد مياههم التي عليها يجلسون، ومن ذلك شواطئ الترع والقنوات والأنهار، وأيضًا تحذيره ﷺ من ترك أواني الطعام والشراب مكشوفة؛ وذلك حفظًا للطعام والشراب من سقوط الحشرات المؤذية التي تولد جراثيم المرض، وهذا كله من باب الوقاية والتحفظ من الأمراض وأسبابها، وغير ذلك كثير، فهذه بعض النماذج للطب الوقائي في عهد رسول الله ﷺ، وقد أثبت الطب صحتها وعظّم نتائجها في الوقاية وحفظ الصحة.

* * *

الفصل الثاني
الجوانب الإدارية في السيرة النبوية

إدارة البلدان:

ترجع الأسس العامة لإدارة البلدان إلى ما بعد فتح مكة (سنة ٨ هـ)؛ إذ امتدت دولة الإسلام تدريجيًّا إلى المناطق المجاورة إلى أن شملت مكة ثم بلاد الحجاز والجزيرة العربية كافة، وكان للرسول ﷺ الرئاسة العامة في أمور الدين والدنيا، وسلطاته الإدارية تشمل الدولة كلها فيما يتعلق بتحديد الأهداف ورسم السياسات العامة.

وقد شارك الرسول ﷺ في إدارة الدولة مجموعةٌ من خيرة الصحابة الذين يشهد لهم بالعقل والفضل والبصيرة، واختير هؤلاء الرجال من أولئك السابقين إلى الإسلام والذين لهم نفوذ وقوة في أقوامهم، وجاء في مقدمة هؤلاء العاملين في الميدان الإداري سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار، ويلاحظ أن بعض المصادر أطلقت عليهم اسم النقباء، فعن عبد الله بن مُلَيل قال: سمعت عليًّا يقول:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ليس من نبيّ كان قبلي إلا قد أُعْطِي سبعة نُقَباء وزراء نجَباء، وإني أعطيت أربعة عشر وزيرًا نقيبًا نجيبًا، سبعةً من قريش، وسبعةً من المهاجرين" [1]، في حين أطلق عليهم بعض المحدثين اسم « مجلس الشورى» أو « مجلس النقباء »[2].

اتخاذ الوزراء :

وكان النبي ﷺ غالبًا ما يستشير أبا بكر، وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما)، وكان يستشير الاثنين والثلاثة ، وكما فعل في يوم الأحزاب ، إذ استشار سعد بن معاذ، وسعدبن عبادة ، واستشار أسامة بن زيد ، وعلي بن أبي طالب في فراق أهله.

ولقد استشار النبي ﷺ جمهور الناس عن طريق ممثلين عنهم كما حدث بعد يوم حنين ، إذ قدم وفد هوازن مسلمًا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٨/١) .

(٢) الإدارة في عصر الرسول ﷺ، أحمد عجاج كرمى، ط١، ١٤٢٧هـ، دار السلام، القاهرة، ص (٩٣).

إلى النبي ﷺ، فطلب النبي ﷺ من الناس أن يعطوا رأيهم في ردِّ المغانم التي غنموها فاختلف الناس [1]، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ فِي المُسْلِمِينَ، فَأَثْنَى عَلَى الله بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ : " أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ هَؤُلاَءِ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ بِذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ"، فَقَالَ النَّاسُ : قَدْ طَيَّبْنَا ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ لَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : " إِنَّا لاَ نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ، فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعُوا إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ» فَرَجَعَ النَّاسُ، فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ قَدْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا"[2].

وقد أطلقت بعض المصادر على أولئك الذين استشارهم النبي ﷺ بشكل كبير اسم «الوزراء»، فعن ابن

---

(١) السيرة، لابن هشام، (٤٨٨/٢-٤٨٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الوكالة، بَابُ إِذَا وَهَبَ شَيْئًا لِوَكِيلٍ أَوْ شَفِيعِ قَوْمٍ جَازَ (٩٩/٣).

المسيب أنه قال: «كان أبو بكر الصديق من النبي ﷺ مكان الوزير، فكان يشاوره في جميع أموره» [1].

وبهذا المعنى كان أبو بكر يفوّض عن النبي ﷺ في بعض القضايا، فقد أخرج البخاري أن امرأة أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَمَرَهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، قَالَتْ: أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ وَلَمْ أَجِدْكَ؟ كَأَنَّهَا تَقُولُ: المَوْتَ، قَالَ ﷺ: " إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ "[2].

من الوظائف الإدارية:

أشارت المصادر إلى مجموعة من الوظائف الإدارية، نذكر منها ما يلي:

- هناك من كان يعمل (حاجبًا) لرسول الله ﷺ، وكان يقوم بالإذن عليه في بعض الأوقات، وهناك إشارات تبين أن سفينة ورباح الأسود (من موالي رسول الله ﷺ)، وأنس بن مالك، قاموا بهذه المهمة بتكليف من الرسول ﷺ [3].

---

(١) التراتيب الإدارية (٨٨/١).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب أصحاب النبي ﷺ بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً» (٥/٥).

(٣) تاريخ الطبري، ط ٢، ١٣٨٧، دار التراث، بيروت، (١٧١/٣-١٧٢).

- وكانت هناك وظائف إدارية ذات طبيعة إعلامية وهي وظيفة (الشعراء والخطباء)، فكان هؤلاء يذودون عن رسول الله ﷺ بألسنتهم، ويعيبون على قريش عبادتهم للأصنام، ويردون على شعراء المشركين وخطبائهم، وبذلك كانوا يمثلون بشعرهم حربًا إعلامية شديدة التأثير في بيئة قبلية احتل الشعراء والبلغاء فيها مكانة خاصة، وكان من أشهر هؤلاء حسان بن ثابت، وكان النبي يشجعه في إبراز محاسن الإسلام، والذود عن حرماته، فقد أخرج مسلم أن رسول الله ﷺ كان يقول : " يَا حَسَّانُ أَجِبْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، اللهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ" [1].

- وكان لشعر عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك (رضي الله عنهما) دور كبير في المعارك المختلفة، فكانت مهمتهم أن يحرضوا المجاهدين على القتال، وأن يتصدّوا للمشركين وشعرائهم[2].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة (رضي الله عنهم) ، بَابُ فَضَائِلِ حَسَّان بْنِ ثَابِتٍ ﷺ، (١٩٣٣/٤).

(٢) الإدارة في عصر الرسول ﷺ، ص (٩٦) .

- وكان ثابت بن قيس الخزرجي يقوم بمهمة (الخطابة)، فيرد على خطباء الوفود، وقد وفد بنو تميم إلى النبي ﷺ عام (٩ هـ)، فقام شاعرهم وخطيبهم، فقال شعرًا ونثرًا، فأمر النبي ﷺ حسان بن ثابت، وثابت بن قيس بإجابتهم ففعلا[١].

- وذكرت المصادر عددًا ممن أنابهم الرسول ﷺ على إدارة المدينة في حالة خروجه، ويلاحظ من جريدة الأسماء التي اختارها الرسول ﷺ لذلك أنه لم يقتصر على اختيار شخص معين، ولكن بقيت الكفاءة والأمانة والقدرة هي أسس الاختيار والتولية [٢].

- وكانت "مكة" ، و "الطائف" ، و "اليمن" وحدات إدارية [٣]، وهكذا صنع رسول الله ﷺ مع العديد من الوحدات الإدارية، كنجران والبحرين، وحضرموت،

---

(١) تاريخ الطبري، (١١٦/٣) .

(٢) الإدارة في عصر الرسول ﷺ، ص (٩٨).

(٣) راجع في ذلك : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، للأزرقي، تحقيق، رشدي الصالح، دار الأندلس للنشر، بيروت، (١٥٣/٢)، والإدارة في عصر=

والصدف، وقرى عرينة (تبوك وخيبر وفدك)، ووادي القرى، وجرش، ودبا، ووادي العقيق، وغيرها [1].

القيادة والصلاحيات :

التطور الإداري :

إن المتأمل في سيرته ﷺ يرى منهجية التخطيط، وتحديد الأهداف، وتنظيم الوسائل، وتوظيف الطاقات، وإحكام العملية الإدارية في كل مراحل الدعوة وفي هجرته إلى المدينة؛ مما يُعطي صورة مشرفة لعملية التخطيط من بدايتها إلى نهايتها، فقد حدد الرسول ﷺ أهدافها ووسائلها، ووظّف الطاقات المتاحة لمن حوله، كل فيما يُحسنه، بل إنه بعد هجرته ﷺ إلى المدينة طلب من أصحابه أن يقوموا بعمل إحصاء لعدد المسلمين، فأحصوا فكانوا ألفًا وخمسمائة، عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اكْتُبُوا لِي مَنْ تَلَفَّظَ بِالإِسْلاَمِ مِنَ النَّاسِ»، فَكَتَبْنَا لَهُ أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةٍ

= الرسول ﷺ، ص (٩٩)، وتاريخ ابن خلدون ، تحقيق : خليل شحادة، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، دار الفكر ، بيروت، (٧٦/٢) .

(١) الإدارة في عصر الرسول ﷺ، ص (١٠٠-١٠٢)

رَجُلٍ[1]، وذلك لتكون لديه ﷺ معرفة عمليّة دقيقة، ولتكون مواقفه مبنية على دراسة وبيّنة، ومن ثمّ يبدأ في توزيع المهام وتعليم المهن والصناعات والحِرف.

كُتّاب النبي ﷺ:

وعندما جاء الإسلام أراد النبي ﷺ أن ينظم أمر الحكومة التي أنشأها في المدينة، فاستعان بعدد كبير من أصحابه الذين يعرفون القراءة والكتابة، وقد قسم النبي ﷺ هؤلاء الكتّاب إلى مجموعات تخصصية[2]، ومن ذلك " كاتب العهود، وكاتب المغازي، وكاتب بين القبائل، وكاتب يجيب الملوك، وكاتب على أموال الصدقات، وكاتب على المداينات والمعاملات، ومسئول عن التوقيعات إلى الملوك، وترجمان، وغير ذلك.

وقد بلغ كتّاب الرسول ﷺ اثنين وأربعين رجلاً، منهم : أبو بكر، وعمر، وعثمان، والزبير، وحنظلة الأسيدي، والعلاء بن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط / بَابُ كِتَابَةِ الإِمَامِ النَّاسَ ، (٧٢/٤) .

(٢) انظر : الإدارة الإسلامية في عز العرب ، محمد كرد ، ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م، مطبعة مصر ، القاهرة ، ص (١٣-١٥)، والإدارة في عصر الرسول ، ص (١١٨-١٢٣).

الحضرمي، وخالد بن الوليد، وعبد الله بن رواحة، ومحمد بن مسلمة، وعمرو بن العاص، وغيرهم .

ولقد بلغ من اهتمام النبي ﷺ بالجهاز الإداري الكتابي أن عين خليفة لكل كاتب إذا غاب عن عمله، وذلك حتى لا تتعطل حاجات الدولة الإدارية لغياب كاتب بسبب مرض أو غيره.

إدارة العلاقات الدبلوماسية :

لقد استخدمت كلمات معينة في عصر الرسالة وما بعدها، وهي (السفارة، والرسول، والبريد)، وكانت العلاقات التي أقامها الرسول ﷺ مقصورة على المحادثات الشخصية، وإرسال الكتب، وإيفاد البعثات إلى القبائل وإلى الملوك للتعريف بالإسلام والدعوة إليه، ومن هنا فإن وظيفة البريد (السفارة) كانت من الوظائف الإدارية المهمة التي لاقت اهتمامًا كبيرًا من جانب الدولة، وكان ما وصلنا من كتب ومواثيق ومعاهدات قام بإبرامها النبي ﷺ يتجاوز المائتين وخمسين كتابًا، وشملت معاهدات مع اليهود والنصارى، وعقود صلح بين النبي ﷺ والقبائل، وكتب إقطاع وأمان،

ورسائل دعوة إلى رؤساء القبائل والملوك والأمراء، مما يجعلنا نؤكد على أن سفارات الرسول ﷺ وكتبه كانت عملاً بديعًا من أعمال الدبلوماسية والعلاقات الدولية[1] .

وقد كان من هؤلاء الرسل الذين بعثهم النبي ﷺ إلى الملوك، وأرسل معهم كتبًا يدعوهم فيها إلى الإسلام : دحية بن خليفة الكلبي، وعبد الله بن حذافة السهمي، وعمرو بن أمية الضمري، وحاطب بن أبى بلتعة، وعمرو بن العاص، وسليط بن عمرو، والعلاء بن الحضرمي، وشجاع بن وهب الأسدي، وغيرهم [2] .

وقد نهج النبي ﷺ في اختيار رسله أمرًا لا يخرج عن المألوف والعرف الجاري لدى الدبلوماسية الحديثة، من تبادل السفراء، ومراعاة الأناقة، وجمال الخلقة، والكفاءات الممتازة بصفتهم ممثلين لأمتهم؛ ولذلك فإن النبي ﷺ بعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر، ويشير إلى ذلك ابن

---

(١) الإدارة في عصر الرسول، ص (١٢٨) .

(٢) السيرة لابن هشام، (٦٠٧/٢) .

قتيبة بقوله: «إن جبريل كان يجيء على صورة دحية الكلبي؛ لأن دحية كان من أجمل أهل زمانه، وأحسنهم صورة»، وهذا يصدق على بقية رسله فكان معاذ بن جبل، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن حذافة، وعمرو بن العاص، وغيرهم من «أعقل الصحابة وأجملهم صورة، وأحسنهم حديثًا، وأطلقهم لسانًا وقوة حجة»، وكان هؤلاء الرسل من أولئك المشهورين في المجتمع الإسلامي الذين نبهوا في العلم أو الكتابة أو الإدارة، وقد بلغ من حرص النبي ﷺ على قواعد الدبلوماسية أنه قال: « إن أبردتم إليّ بريدًا فاجعلوه حسن الوجه حسن الاسم»[1].

القضاء في عهد الرسول ﷺ:

لقد نبتت نواة القضاء عند العرب في الجاهلية، فلما جاء الإسلام تولى الرسول ﷺ الفصل في الخصومات، كما

(١) انظر: عيون الأخبار ، لابن قتيبة الدينوري ، ط١٤١٨هـ ، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢٣٦/١)، وأبعاد إدارية واقتصادية واجتماعية في السيرة النبوية ، عبد العزيز بن إبراهيم العمري، ص (٦٧)، ومعجم مصطلحات التاريخ والحضارة، أنور محمود زناتي، ط١، ٢٠١١م، دار زهران، الأردن، ص (٢٤٣) .

يتبين ذلك من الحِلف الذي عقده بين المهاجرين وبين أهل المدينة من المسلمين واليهود وغيرهم من المشركين، وفيه يقول : "وَإِنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ، فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى الله ﷻ، وَإِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله ﷺ " [1].

فكان ﷺ قاضيًا، كما كان للشريعة مُبلِّغًا، وقد كان النبي ﷺ، يعهد بالقضاء إلى بعض الولاة ضمن توليتهم أمور الولاية، وتارة يعهد إلى بعض أصحابه بفضّ بعض الخصومات .

وكانت طرق الإثبات عنده ﷺ في القضاء (البينة، واليمين، والشهود، والكتابة، والفراسة، وغيرها)، وكان ﷺ يقول: "الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ادَّعَى، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ إِلا فِي الْقَسَامَةِ"[2]، والبَيّنة في الشرع : اسم لما يُبَيّن الحق ويُظهره، بمعنى أن المدّعي ملزَم بإظهار ما يبين صحة دعواه، فإذا أظهر صدقه

---

(١) السيرة ، لابن هشام، (٥٠٤/١).

(٢) أخرجه الدار قطني في سننه ، كتاب الحدود والديات وغيره (١١٤/٤)، والبيهقي في السنن الصغير ، كتاب الديات ، بَابُ الْقَسَامَةِ (٢٥٧/٣).

بإحدى الطرق، حُكِم له، وكان رسول الله ﷺ يقول : " أمرت أن أحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر"[1].

ولقد كان ﷺ لا يحابي أحدًا من المتخاصمين، ومما أثر عنه في ذلك ما جاء عَنْ عَلِيٍّ ﷺ، قَالَ : بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْيَمَنِ قَاضِيًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله تُرْسِلُنِي وَأَنَا حَدِيثُ السِّنِّ، وَلا عِلْمَ لِي بِالْقَضَاءِ، فَقَالَ: " إِنَّ الله سَيَهْدِي قَلْبَكَ، وَيُثَبِّتُ لِسَانَكَ، فَإِذَا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْكَ الْخَصْمَانِ، فَلا تَقْضِيَنَّ حَتَّى تَسْمَعَ مِنَ الْآخَرِ، كَمَا سَمِعْتَ مِنَ الْأَوَّلِ، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ الْقَضَاءُ " [2]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : " إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَخْطَأَ كَانَ لَهُ أَجْرٌ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَصَابَ كَانَ لَهُ أَجْرَانِ"[3].

---

(١) أخرجه الشافعي في مسنده، باب الإيمان والإسلام، (١٣/١).

(٢) أخرجه أبو داود في أول كتاب الأقضية ، باب كيف القضاء ، (٤٣٤/٥)، والبيهقي في السنن الكبرى ، بَابُ الْقَاضِي لا يَقْبَلُ شَهَادَةَ الشَّاهِدِ إِلاَّ بِمَحْضَرٍ مِنَ الْخَصْمِ الْمَشْهُودِ عَلَيْهِ ، وَلا يَقْضِي عَلَى الْغَائِبِ، (٢٣٦/١٠).

(٣) المعجم ، الموصلي ، تحقيق : إرشاد الحق الأثري ، ط ١٤٠٧،١هـ، والمنتقى من السنن المسندة ، النيسابوري ، تحقيق، عبد الله البارودي، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت، (٢٩٤/١).

وقد قال صاحب التراتيب الإدارية : لا ننكر أن التمدنَ الإسلامي جرى مجرى النشوء الطبيعي في كل شيء، وسار سيرًا تدريجيًّا إلى أن وصل إلى أوجه في السمو، فمن لم يتأمل ذلك ولم يحط نظرًا في الموضوع بما له وعليه، لا بد أن يغيب عن علمه ما بلغته الإدارات، والعمالات والصناعة والتجارة في تلك السنوات العشر، التي قضاها ﷺ في المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية، وأن الترقي والعمران وصل فيها إلى إحداث ما يعرف من الوظائف اليوم في إدارة الكتابة والحساب والقضاء والحرب والصحة ونحو ذلك[1].

النظم الاقتصادية :

أولاً : الزراعة :

لقد اهتم النبي ﷺ بتنظيم أمور الزراعة اهتمامًا كبيرًا، فأمر باستغلال الأراضي الزراعية، فقال: " مَنْ أَحْيَا أَرْضًا

(١) التراتيب الإدارية، والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة، عبد الحي الكتاني، تحقيق:عبد الله الخالدي،ط٢،دار الأرقم،بيروت (١٢/١).

مَيِّتَةً، فَهِيَ لَهُ." [1]، وكره ﷺ أن يمسك أحد أرضًا دون استغلالها، فقال: " مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَحْرُثْهَا، فَإِنْ كَرِهَ أَنْ يَحْرُثَهَا، فَلْيَمْنَحْهَا أَخَاهُ، فَإِنْ كَرِهَ أَنْ يَمْنَحَهَا أَخَاهُ، فَلْيَدَعْهَا"[2]، وقال أيضًا : " مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا ، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ ، أَوْ إِنْسَانٌ ، أَوْ بَهِيمَةٌ ، إِلا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ" [3] .

لقد نظمت الزراعة في عهد الرسول ﷺ تنظيمًا كبيرًا، فقد زرع النخيل في بساتين سميت بالحوائط [4]، وأوردت المصادر عددًا من أسماء هذه الحوائط، منها حوائط

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والفيء والإمارة ، باب في إحياء الموات، (٦٨٠/٤).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه ، كتاب البيوع ، بَاب فِي النَّهْيِ عَنِ الْمُخَابَرَةِ، (١٧٠٧/٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المزارعة ، بَابُ فَضْلِ الزَّرْعِ وَالغَرْسِ إِذَا أُكِلَ مِنْهُ، (١٠٣/٣)، ومسلم في كتاب المساقاة، بَابُ فَضْلِ الْغَرْسِ وَالزَّرْعِ، (١١٨٩/٣).

(٤) لسان العرب، (٢٧٩/٧-٢٨٠).

مخيريق السبعة، وحائط أبي الدحداح الذي تصدق به على المسلمين[1] .

كما أقطع رسول الله ﷺ أناسًا أرضًا لغرض «إحياء الأرض الموات» فأقطع أبيض بن حمال المازني الملح الذي بمأرب، وسليط الأنصاري أقطعه أرضًا ليحييها، ولكنه عاد واستأذن الرسول ﷺ بالتخلي عنها فأقطعها الزبير ﷺ[2]، وكذلك أقطع أرضًا لغرض «السكن»، فقد أقطع لبني زهرة من ناحية مؤخرة المسجد، وجعل للزبير بن العوام بقيعًا واسعًا، وجعل لطلحة بن عبيد الله موضع داره، وكذلك فعل بالنسبة إلى أبي بكر وعثمان وغيرهم من الصحابة[3] .

ولا شك أن هذه الأراضي التي أقطعها النبي ﷺ لآخرين لم تكن حقًّا لأحدٍ ، بل كانت من الأراضي التي لم

---

(١) المغازي، للواقدي، (٢٦٢/١) .

(٢) الخراج وصناعة الكتابة، قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج، ط١، ١٩٨١م، دار الرشيد للنشر، بغداد، ص (٢١٥) .

(٣) البلدان، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني المعروف بابن الفقيه، تحقيق، يوسف الهادي، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، عالم الكتب، بيروت، ص (٨١٩).

يكن لها مالك، فيروى أن حريثَ بن حسان الشيباني سأل رسول الله ﷺ أن يكتب له كتابًا بالدهناء، خاصة دون تميم، وكانت الدهناء مرعى لبني بكر بن وائل وتميم، فوافق الرسول ﷺ وهمّ بالكتابة إليه، إلا أن امرأة تدعى قيلة بنت مخرمة كانت في وفد تميم قالت لرسول الله ﷺ: إِنَّهُ لَمْ يَسْأَلْكَ السَّوِيَّةَ مِنَ الأَرْضِ إِذْ سَأَلَكَ، إِنَّمَا هَذِهِ الدَّهْنَاءُ عِنْدَكَ مُقَيَّدُ الْجَمَلِ وَمَرْعَى الْغَنَمِ، وَنِسَاءُ تَمِيمٍ وَأَبْنَاؤُهَا وَرَاءَ ذَلِكَ! فَقَالَ: أَمْسِكْ يَا غُلامُ[1]، وهذا من فعله ﷺ بطريقِ الإمامة.

ثانيًا : التجارة :

لقد عُني النبي ﷺ بالدعوة إلى الاشتغال بالتجارة عنايته بالدعوة إلى الزراعة، حيث شعر النبي ﷺ في وقت مبكر بضرورة إنشاء سوق تجارية للمسلمين، يستطيع من خلالها أن يخلص الاقتصاد المدني من سيطرة اليهود وجشعهم، وكانت هذه السوق مكشوفة، ويباع فيها إنتاج المدينة والبوادي المجاورة وما يأتي إليها من الخارج،

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد، (٢٤٢/١).

وذلك في إطار إجراءات شرعية تنظيمية كان على التجار الالتزام بها.

ونستطيع أن نبرز السمت العام للتجارة التي أرساها النبي ﷺ؛ حيث نهى عن الاحتكار والخداع، والغش، والحلف، إلى غير ذلك من التشريعات والآداب التي نظمت عمليات البيع والشراء في سوق المدينة.

ثالثًا : الصناعة :

إن العمل في الإسلام ليس منحصرًا أو مختزلًا في عمل بعينه، بل يشمل جميع أصناف العمل الدنيوي، وجميع ضروب الصناعة والتصنيع وغيرها، ومن هنا فالمرجو من كل مؤمن أن يتقن عمله كل الإتقان،كما قال ﷺ: "إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ "[1].

ولعل من أولى أمور الصناعة التي اهتم بها المسلمون «صناعة البناء» إذ احتاج المهاجرون إلى مساكن يسكنونها

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، (٢٧٥/١) حديث رقم (٨٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان ، باب في الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها ، (٣١٩/٤).

في المدينة، فخط لهم النبي ﷺ الخطط، وحدد لهم الأماكن التي يبنون عليها، كما أن هناك مجموعة من الأبنية أسست بعد الهجرة منها المسجد النبوي الشريف، بالإضافة إلى أن النبي ﷺ كان يخط المساجد في منازل القبائل المختلفة ويوجه لهم القبلة، ويختار الأرض الصالحة للمسجد، ويحددها لهم، فقد خط رسول الله ﷺ لجهينة مسجدهم في المدينة [1] .

لقد كان للنبي ﷺ مجموعة من التوجيهات التنظيمية في البناء استفاد منها الصحابة، كما أخذ عنها الفقهاء بعض الأحكام الفقهية مثل تقديم من يجيد العمل على من لا يجيده بصرف النظر عن تقوى كل منهم، فقد وفد رجل من بني حنيفة إلى النبي ﷺ وكان الرجل ممن يحسنون خلط الطين، وكان النبي ﷺ يعمل مع الصحابة في المسجد، فقال: "دعوا الحنفي فإنه أضبطكم للطين"، فأخذ المسحاة وأخذ يعالج الطين

(١) الإدارة في عصر الرسول، ص (١٧٤) .

ويخلطه والرسول ينظر إليه ويقول: "إن هذا الحنفي لصاحب طين"[1].

ولقد كان لهذه التعاليم النبوية المشرفة الأثر البالغ في نفوس المسلمين، فأقبلوا على أنواع الصناعات، يتقنونها ويحاولون التفوق فيها على غيرهم من الشعوب.

واشتهرت بعض الصناعات في عهد رسول الله ﷺ، كصناعة الحدادة، والصياغة (الحُليّ)، وظهرت مهنة الخياطة، وغيرها[2].

استخدام الكفاءات المناسبة في المكان المناسب :

إن رسول الله ﷺ، قد أعطانا نموذجًا عمليًّا يتعلق باستخدام الكفاءات في المكان المناسب لها، فقد كان ﷺ – هو القدوة لنا – يستعمل كل فرد في موضعه الصحيح، وفي مكانه المناسب، فيعطي لكل فرد الوظيفة التي تناسبه وتلائمه؛ وذلك للاستفادة القصوى من قدراته وقابليته وطاقاته وعدم وقوعه في أي خطأ، فرسول الله ﷺ كان إذا استخدم أحدًا

(١) التراتيب الإدارية، (٥٧/٢).

(٢) الإدارة في عصر الرسول، ص (١٧٤) وما بعدها.

لمهمة ما، يختار أنسب الأشخاص الموجودين لتلك المهمة وإجراءاته شاهدة على هذا؛ ولذلك لما جاءه أبو ذر الغفاري ﷺ يطلب الإمارة، قال: يا أبا ذر ! إنك ضعيف. وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدّى الذي عليه فيها "[1].

إدارة الأزمات:

إذا كانت الأزمة يراد بها : كل تهديد يُلحِق الأذى بالأشخاص، أو الممتلكات، أو يؤدي إلى تعطيل سير العمل، فإن إدارتها تعني فن السيطرة على مثل هذه المواقف من خلال استشعار ورصد المتغيرات التي أدت إلى حدوثها، وهذا يعتمد على التأصيل للماضي، وقراءة الحاضر، فيصل إلى التنبؤ بالمستقبل، ويكون على استعداد لحل الأزمات الحادثة أو التي قد تحدث.

وقد كان ﷺ يعالج الأزمات بمزيد إعداد وترتيب وتخطيط وتهيئة تليق بالتعامل مع الأزمة التي تطرح، فيكون

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب كراهة الإمامة بغير ضرورة (٣/ ١٤٥٧)، والسنن الكبرى للبيهقي، (١٠/٩٥) .

أولًا صاحب رؤية صحيحة لحقيقة الأزمة ؛ حتى يكون قادرًا على التحليل السريع لها، وتقدير المواقف المتلاحقة والسريعة التي من المحتمل أن تنتج عنها، ونحن لابد وأن نتعلم ذلك تطبيقًا من رسول الله ﷺ، فيكون لدينا أكبر قدر نستطيع أن نصل إليه من المعلومات المتعلقة بالأزمة، ثم نسلك أعلى درجات الدقة في تقديرها؛ لأن ذلك يوصلنا إلى تحليل الموقف جملة، ومن ثم نستطيع أن نضع خطة نواجه بها تلك الأزمة وفقًا لتقديرنا وتحليلنا لها [1].

* * *

(١) إدارة الأزمات، د/ محمد الشافعي، ط٢، ٢٠٠٣م، مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، ص (٧٥-٧٧) بتصرف.

استراتيجية الرسول ﷺ في صد العدوان

لقد فُرِض القتال في الإسلام لغاية رئيسة؛ ليكون أداةً للدفاع عن النفس، وصدّ العدوان، ورفع الطغيان، والدفاع عن الدين والوطن والدولة.

ومع عدالة القتال الدفاعي الذي اضطر إليه المسلمون، ومع وقوفهم في هذا القتال عند حدود ردّ العدوان كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[1]، فلقد وضع النبي ﷺ ضوابط وأخلاقًا، صاغها ﷺ (دستورًا أخلاقيًّا) ظهر تطبيقًا لأول مرة في تاريخ الحروب والقتال قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان، ومن ذلك:

- لا يجوز قتال قوم إلا بعد إعلامهم ، قال تعالى : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾[2]،

---

(١) سورةالبقرة، آية رقم (١٩٠) .

(٢) سورةالأنفال، آيةرقم (٥٨) .

ولقد طبّق المسلمون هذا التشريع القرآني ، ولا يتوجه القتال للمسالمين من غير المقاتلين من الأعداء ، فالقتال فقط ضد المقاتلين .

- تحريم الخيانة في المغانم ، والسرقة من أموال المحاربين ، وتحريم الغدر حتى بالأعداء أثناء القتال ، وتحريم التمثيل بالقتلى ؛ احترامًا لكرامة جثث القتلى.

- وقد جاءت هذه الأوامر كلها من رسول الله ﷺ؛ لتقرر معالم الدستور الأخلاقي في الحروب؛ فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: " اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلا تَغُلُّوا، وَلا تَغْدِرُوا، وَلا تَمْثُلُوا، وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا" [1].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، بَابُ تَأْمِيرِ الإِمَامِ الأُمَرَاءَ عَلَى الْبُعُوثِ، وَوَصِيَّتِهِ إِيَّاهُمْ بِآدَابِ الْغَزْوِ وَغَيْرِهَا، (١٣٥٧/٣) .

- ولقد صاغ سيدنا أبو بكر ﷺ كل هذه الوصايا التي تمثل الدستور الأخلاقي في الحروب والقتال، مما تعلّمه من رسول الله ﷺ، حين قال لأحد أمراء جيشه : إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ ﷻ، فَذَرْهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ، وَسَتَجِدُ قَوْمًا فَحَصُوا عَنْ أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ مِنَ الشَّعْرِ، فَاضْرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْفِ، وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ : لا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلا صَبِيًّا، وَلا كَبِيرًا هَرِمًا، وَلا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلا تُخرِبَنَّ عَامِرًا، وَلا تَعْقِرَنَّ شَاةً، وَلا بَعِيرًا إِلا لِمَأْكَلَةٍ، وَلا تَحْرِقَنَّ نَخْلاً، وَلا تُغَرِّقَنَّهُ، وَلا تَغْلُلْ، وَلا تَجْبُنْ [1].

وبقراءة دقيقة لما سبق ، نستطيع أن نبرز أهم شروط وضوابط القتال في الإسلام ، والتي منها :

- النبل والوضوح في الوسيلة والهدف .
- لا قتال إلا مع المقاتلين ولا عدوان على المدنيين .
- إذا جنحوا للسلم وانتهوا عن القتال فلا عدوان إلا على الظالمين.

---

(١) الدرر في اختصار المغازي والسير، ص (٩٥) وما بعدها.

- المحافظة على الأسرى ومعاملتهم المعاملة الحسنة التي تليق بالإنسان.

- المحافظة على البيئة ، ويدخل في ذلك النهي عن قتل الحيوان لغير مصلحة، وتحريق الأشجار، وإفساد الزروع والثمار والمياه، وتلويث الآبار، وهدم البيوت.

- المحافظة على الحرية الدينية لأصحاب الصوامع والرهبان وعدم التعرض لهم[1].

الآثار المترتبة على صد العدوان :

إن التعبير بالإذن في القتال للدفاع عن النفس والوطن يدل دلالة عميقة على المنع قبل نزول الآية الكريمة: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، ط٦، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ص (٤١٧).

يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[1]، حيث إنه ظل ممنوعًا طيلة العهد المكي (ثلاثة عشر عامًا) وبعضًا من العهد المدني (حتى السنة الثانية من الهجرة) .

هذا ولم يغفل الإسلام حتى في هذا الموطن- موطن الدفاع عن النفس والدين- أن ينصح أتباعه بعدم العدوان؛ لأن الموضوع حماية حق لا موضوع انتقام ولا شفاء حزازات الصدور، لهذا السبب ولأن موحيه هو رب العالمين الذي وسعت رحمته كل شيء، أُحيطت جميع آيات الجهاد فيه بأوامر مشددة في مراعاة العدل مع المحاربين، والاعتداد بالظاهر من أعذارهم؛ مما يُعد مُثلا عُليا .. [2] .

لقد اتسم القتال في الإسلام بنبل الغاية والوسيلة معًا، فلا غرو أن تكون الآثار والثمار المتولدة عن هذا الجهاد متناسقة تمامًا في هذا السياق من النبل والوضوح؛ لأن

---

(١) سورة الحج، الآيات (٣٩-٤٠) .

(٢) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة ، محمد فريد وجدي، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ص (١٦٣).

النتائج فرع عن المقدمات، ونلخص هذه الآثار في النقاط التالية:

(١) تربية النفس على الشهامة والنجدة والفروسية.

(٢) إزالة الطواغيت الجاثمة فوق صدور الناس، وهو الشر الذي يؤدي إلى الإفساد في الأرض بعد إصلاحها.

(٣) إقرار العدل والحرية لجميع الناس مهما كانت عقائدهم.

(٤) تقديم القضايا العامة على المصلحة الشخصية.

(٥) تحقيق قوة ردع مناسبة لتأمين الناس في أوطانهم[1].

التصرف بحكمة وعدم إفشاء الأسرار:

إن النبي ﷺ بعث سريةً من المهاجرين قوامها اثنا عشر رجلا بقيادة عبد الله بن جحش الأسدي؛ للقيام بواجبات استطلاعية، وتوَّجهت هذه السريّة نحو هدفها، ومع قائدها (رسالة مكتومة)، أمره رسول الله ﷺ ألا يفتحها إلا بعد يومين من مسيره، ومن ثم ينفذ ما جاء فيها، فَلَمَّا سَارَ عَبْدُ الله بْنُ

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، ص (٤١٧).

جَحْشٍ يَوْمَيْنِ فَتَحَ الْكِتَابَ، فَنَظَرَ فِيهِ فَإِذَا فِيهِ: إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي هَذَا فَامْضِ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ، بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، فَتَرَصَّدْ بِهَا قُرَيْشًا وَتَعَلَّمْ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ، ثُمَّ قَالَ لأَصْحَابِهِ: قَدْ أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنْ أَمْضِيَ إِلَى نَخْلَةَ، أَرْصُدَ بِهَا قُرَيْشًا، حَتَّى آتِيَهُ مِنْهُمْ بِخَبَرٍ، وَقَدْ نَهَانِي أَنْ أَسْتَكْرِهَ أَحَدًا مِنْكُمْ. فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُرِيدُ الشَّهَادَةَ وَيَرْغَبُ فِيهَا فَلْيَنْطَلِقْ، وَمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ فَلْيَرْجِعْ، فَأَمَّا أَنَا فَمَاضٍ لأَمْرِ رَسُولِ الله ﷺ، فَمَضَى وَمَضَى مَعَهُ أَصْحَابُهُ، لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وسارعوا إلى تنفيذها فورًا [1].

إذن فقد ابتكر رسول الله ﷺ هنا أسلوبًا جديدًا وهو الرسائل المكتومة؛ للمحافظة على الأسرار، ولحرمان أعداء الإسلام من الحصول على المعلومات التي تفيدهم عن تحركات المسلمين وأهدافهم ومراميهم.

- ما قام به النبي ﷺ حين بلغه أن طُليحةَ وسلمة ابني خويلد كانا يُحرّضان قومَهما (بني أسد) لغزو المدينة

(١) السيرة لابن هشام (٦٠٢/١)، والدرر في اختصار المغازي والسير ، ص (٩٩).

المنورة ونهب أموال المسلمين، وكان ذلك بعد يوم أحد بشهرين؛ حيث أرسل ﷺ مائة وخمسين مسلمًا من المهاجرين والأنصار بقيادة سلمة بن عبد الأسد ﷺ؛ للقضاء على بني أسد قبل قيامهم بغزو المدينة المنورة، وأمرهم النبي ﷺ بالسير ليلاً، والاستخفاء نهارًا، وسلوك طريق غير مطروقة؛ حتى لا يطّلع أحدٌ على أخبارهم ونياتهم، فباغتوا بني أسد في وقت لا يتوقعونه، وبعد تنفيذ أمر رسول الله ﷺ، عادوا بالغنائم [1] .

- ومثل ذلك كثير كما في يوم (دومة الجندل)[2]، وفي يوم الأحزاب [3]، وغير ذلك كثير من الأمثلة التي تبرز هذا التصرف المحكم من رسول الله ﷺ؛ ليحافظ على قيمة وشرف المعلوماتية التي تتعلق بالجيش والوطن، ومن هنا، فإن من يفشي أسرار جيشه ووطنه، فهو خائن لهما خيانة عظمى، وليس له من عذر أمام الله ﷻ.

---

(١) مغازي الواقدي، (١/٣٤٠-٣٤١) .

(٢) دلائل النبوة، للبيهقي، (٣/٣٩٠-٣٩١) .

(٣) السيرة،لابن هشام، (٢/٢٣٣) وما بعدها.

سياسته ﷺ في تجنب القتال :

كان رسول الله ﷺ حريصًا في استراتيجيته التي تتعلق بالقتال على تجنبه والاحتراز منه ومن كل ما يؤدي إليه، ما دام لم يكن صدًّا لعدوانٍ، ومن النماذج التي تبرز ذلك، ما يلى :

- توجيه النبي ﷺ إلى عدم التفتيش عما في قلوب الناس، فلو أظهر أحدُ المقاتلين الشهادةَ أثناء الجهاد، عصم دمه وأمنه [1]، ودليل ذلك :

ما جاء عَنِ الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ (رضي الله عنه) أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلاً مِنَ الْكُفَّارِ فَقَاتَلَنِي، فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا، ثُمَّ لاذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ، فَقَالَ: أَسْلَمْتُ لِلَّهِ، أَفَأَقْتُلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ، بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟ قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ : " لا تَقْتُلْهُ "، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُ قَدْ قَطَعَ يَدِي، ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ قَطَعَهَا، أَفَأَقْتُلُهُ؟، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " لا تَقْتُلْهُ فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ

---

(١) التعايش مع الآخر، ص (١٥٩) .

بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ " [1].

- وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلاً فَقَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ، فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : "أَقَالَ : لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَقَتَلْتَهُ؟". قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلاحِ، قَالَ: " أَفَلا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لا؟ "، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ .

- وكان من توجيه النبي ﷺ أيضًا : عدم اتباع الفار الهارب من المعركة، وعدم قتل الأسير، فعَنْ حُصَيْنٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ : " أَلا لا يُقْتَلُ مُدْبِرٌ، وَلا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحٍ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ " [2].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، بَاب تَحْرِيمِ قَتْلِ الْكَافِرِ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ، (٩٥/١) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه،كتاب السير، فِي الإِجْهَازِ عَلَى الْجَرْحَى، وَاتِّبَاعِ الْمُدْبِرِ (٧٩٨/٦).

- ولقد كان النبي ﷺ يقدّم الأسوة الحسنة، والقدوة الطيبة في كل مفصل من مفاصل الحياة، حتى إنه ﷺ حوّل غريزة الانتقام إلى أداة فضل ورحمة، فلم يقتصر على النهي عن تعذيب الأسير أو تجويعه، بل امتد إلى الحث على الإحسان إليه وإكرامه ومساواته بالمسكين واليتيم، وبهذا تتحول أحد تبعات الحروب، على الرغم من ضراوتها وقسوتها إلى عبادة يرجو صاحبها رضا الله ﷻ، ويصبح بها من الأبرار، وفي الوقت الذي كانت الدول والممالك من حول دولة الإسلام تقتل الأسير أو تستعبده أو تهينه، وضع الإسلام القواعد والأسس التي يحمي بها الأسير ويصون كرامته وإنسانيته، ومن تطبيقات ذلك أن النبي ﷺ أعطى أسيرًا لأبي الهيثم بن التيهان، وأوصاه به خيرًا، فقال أبو الهيثم للأسير : إِنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْصَانِي بِكَ خَيْرًا فَأَنْتَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ[1].

* * *

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، (٣٣٤/٦).

خطبة الوداع

لقد صاغ النبي ﷺ في كلمات جامعة، ووصايا مركزة من خلال خطبة الوداع الكثير من الحقوق والواجبات للإنسان، ثم إنه ﷺ قد طلب من كل مَنْ شهد الخطبة وسمعها أن يُبلّغَ من غاب، ومن ثمّ فكل كلمة في هذه الخطبة لا تزال هداية لكل إنسان، على الرغم من تعاقب القرون، واختلاف البيئات، وتمايز الأجناس، فعن أَبِي بَكْرَةَ، قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ، فَقَالَ: "لِيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَإِنَّهُ رُبَّ مُبَلَّغٍ يَبْلُغُهُ أَوْعَى لَهُ مِنْ سَامِعٍ"[1] .

ومن أبرز الأفكار التي جاءت في خطبة الوداع :

الوحدة في أسمى معانيها ؛ حيث نبّه ﷺ الأمة إلى أن تتحرك من الوحدة الإسلامية إلى الوحدة الإنسانية ، ومن هنا تبرز قيمة الإنسانية ، حيث قال: "أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى

(١) أخرجه ابن ماجه في أبواب السنة ، باب من بلّغ علمًا، (١٥٨/١).

أَحْمَـرَ ، إِلا بِالتَّقْـوَى"[1].

وفيها نسخ لكل ما هو جاهلي، وكل ما هو ظالم من الشرائع التي سبقت ظهور الإسلام، حيث قال ﷺ[2]: "وَإِنَّ كُلَّ رِبًا مَوْضُوعٌ ... وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ ... إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ ".

التأكيد على مساواة النساء للرجال في الحقوق والواجبات، فقد أوصى ﷺ بهن خيرًا، بل بدأ بذكر حقهن على الرجال، لما كنّ عليه من ضعف بالقياس إلى الرجال، فكانت عباراته ﷺ تؤسس لعقد إنساني متبادل، يؤكد من خلاله حق النساء على الرجال، وحق الرجال على النساء، ويظهر ذلك في قوله[3]: " وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ ، إن لنسائكم عليكم حقًّا، ولكم عليهن حقًّا ".

- أهمية القدوة ؛ حيث علّمنا رسول الله ﷺ أن الإمام هو

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، (٤٧٤/٣٨).

(٢) تاريخ الطبري (١٥٠/٣-١٥١).

(٣) المصدر السابق ، نفس الموضع .

الإمام في الريادة ، فيبدأ بنفسه، وهذا ما نلاحظه فيما جاء من وصايا خلال خطبة الوداع ؛ حيث قال [1] : " وَإِنَّ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ " .

تحديد المعيار الذي تتحاكم إليه الأمة دائمًا وأبدًا، وهو الكتاب والسنة، يقول ﷺ [2] : " .. فَإِنِّي قَدْ بَلَّغْتُ وَتَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا، كِتَابَ الله وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ " .

* * *

(١) تاريخ الطبري (٣/١٥٠-١٥١).

(٢) المصدر السابق.

مرض رسول الله ﷺ ووفاته

في أوائل صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة مرض النبي ﷺ بالحمّى، واستمر ثلاثة عشر يومًا ينتقل في بيوت أزواجه، ولما اشتد عليه مرضه استأذن منهن أن يُمرّض في بيت عائشة، فأذنَّ له، ولما تعذّر عليه الخروج إلى الصلاة قال: " مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ "[1].

ولما رأى الأنصار اشتداد مرضه أطافوا بالمسجد قلقين، فخرج ﷺ معصوب الرأس، يخط برجليه متوكئًا على عليّ بن أبي طالب والفضل، يتقدمهم العباس، حتى جلس في أسفل مرقاة المنبر، وأحاط به الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : " يا أيها الناس، بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم، هل خلد نبي قبلي فيمن بعث إليه فأخلد فيكم؟ ألا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان،بَابٌ، حَدُّ المَرِيضِ أَنْ يَشْهَدَ الجَمَاعَةَ، (١٣٣/١)، ومسلم في كتاب الصلاة، بَابُ اسْتِخْلاَفِ الإِمَامِ إِذَا عَرَضَ لَهُ عُذْرٌ مِنْ مَرَضٍ وَسَفَرٍ، وَغَيْرِهِمَا مَنْ يُصلِّي بِالنَّاسِ، وَأَنَّ مَنْ صَلَّى خَلْفَ إِمَامٍ جَالِسٍ لِعَجْزِهِ عَنِ الْقِيَامِ لَزِمَهُ الْقِيَامُ إِذَا قَدِرَ عَلَيْهِ، وَنَسْخِ الْقُعُودِ خَلْفَ الْقَاعِدِ فِي حَقِّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْقِيَامِ، (٣١٣/١) .

إني لاحق بربي، وإنكم لاحقون به، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرًا، وأوصى المهاجرين فيما بينهم " إلى أن قال: " ألا وإني فرط لكم، وأنتم لاحقون بي، ألا وإن موعدكم الحوض، ألا فمن أحب أن يرده عليّ غدًا فليكفف يده ولسانه، إلا فيما ينبغي "[1] .

وبينما المسلمون في صلاة الفجر يوم الإثنين ثالث عشر من ربيع الأول، وأبو بكر ﷺ يصلي بهم، إذ برسول الله ﷺ قد كشف سَجَف حجرة عائشة رضي الله عنها، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة وتبسّم، فظن أبو بكر أن رسول الله يريد أن يخرج للصلاة، فتقهقر إلى الصف، وكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم؛ فرحًا برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده أن أتمّوا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر، ثم حضرته الوفاة ورأسه الشريف على فخذ السيدة عائشة (رضي

(١) المواهب اللدنية، بالمنح المحمدية، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين، المكتبة التوفيقية، القاهرة. (٥٥٧/٣)، وسبل الهدى والرشاد، (٢٥٢/١٢).

الله عنها) فقال : اللهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى "، ولم تأت ضحوة ذلك اليوم حتى فارق رسول الله ﷺ هذه الحياة الدنيا، ولحق بربه ﷻ .

ولم يكن أبو بكر رضي الله عنه موجودًا في ذلك الوقت بالقرب من منزل عائشة، فلما حضر وأخبر الخبر، دخل بيت عائشة وكشف عن وجه رسول الله ﷺ، وجعل يقبّله ويبكي، ويقول : صلوات الله عليك يا رسول الله، ما أطيبك حيًّا وميتًا، ثم خرج إلى الناس وقال : ألا إن من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت [1] .

فاللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

(١) السيرة ، لابن هشام، (٦٥٦/٢) .

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١.	تقـــديم . للأستاذ الدكتور / محمد مختار جمعة – وزير الأوقاف .	٥
٢.	تمهيـــد .	١٤
٣.	الباب الأول : العهد المكي (من الميلاد إلى الهجرة).	١٧
٤.	الفصل الأول : من الميلاد إلى البعثة.	١٨
٥.	الفصل الثاني : من البعثة إلى الهجرة .	٤٧
٦.	الباب الثاني : العهد المدني (من الهجرة إلى لقاء ربه) .	٧٥
٧.	الفصل الأول: الهجرة ... وبناء الدولة.	٧٦

م	الموضوع	الصفحة
٨.	الفصل الثاني : الجوانب الإدارية في السيرة النبوية.	١١١
٩.	فهرس الموضوعات .	١٥٠

❊ ❊ ❊

الناشر / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
رقم الإيداع : ١٣٨٧٨/ ٢٠١٩